الفصول



ابنة الأرض

للرسام الهندى رافى شانكر رافال

سبتمبر - أكتوبر سنة ١٩٥٨

الثمن ٥ قرو

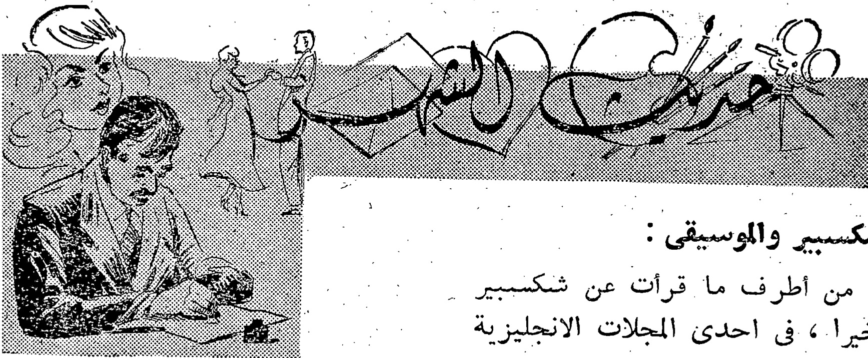
فهرس

عدد سبتمبر ـ أكتوبر سنة ١٩٥٨

الفصول تصدر كل شهر : عدد سبتمبر ـ أكتوبر سنة ١٩٥٨

رئيس التحرير : محمد زكى عبد القادر . الادارة ١٧ ش شريف باشا بمصر ت ٥٧٠٧٣

الاشتراك فى السنة فى مصر والسودان ٥٠ قرشا وفيما عدا ذلك من البلاد ما يوازى قيمته ٧٠ قرشا مصريا .



شكسبير والموسيقى :

من أطرف ما قرأت عن شكسبير أخيرا ، فى احدى المجلات الانجليزية الثقافيـة ، بحث ممتع عن الحس الموسيقى عند عملاق « الدراما » ، خرج منـه كاتبـه الى أن ويليام شكسبير مـدين بعبقريته الفنية ، كمـؤلف مسرحى ، لحسـاسيته الموسيقية المرهفة ، فقـد كانت له قـدرة عجيبة على التقـاط أخفى همسات النفس وأعقـد مشاعرها ، وتحويلها فى سرعة سريعة الى نغمات وألحان « تعبيرية » يسودها التجاوب الهارمونى الذى نحسه فى أعمال كبار الموسيقيين العالميين .. ولم يكن هذا التجاوب يخونه عند صياغة الحوار الشعرى ، أو النثرى ، لأبطال قصصه الخالدة ، ولو اقتصر هـذا الحوار أحيانا — فى أعنف المواقف وأحفلهـا بالمشاعر — على عبارة مبتورة ، أو حتى كلمة يتيمة !

ومن خلال هذه المقدرة المعجزة ، استطاع شكسبير أن ينفذ الى اخفى خفايا النفس وأعجب عقدها ، ليؤلف لها سلما موسيقيا فريدا ، أو — اذا صح التعبير — ثقافة « موسيقية » ترتفع فى عمق مفهومها وقوة تأثيرها التعبيرى ، الى مسـتوى المأثورات المنسوبة للأعلام الكبار من عبـاقرة النغم ..

فالحزن عنده ، مثلا ، يتدرج فى طبقات «ومقامات» موسيقية تتوافق طبقا لنسب رياضية دقيقة ، دون أن تفتقد عـذوبة الجمـال الأدبى ونبضته فى التعبير الصادق ، فهو قد يبدأ حزنا مروعا صارخا ، ثم يأخذ ، مع اطراد المدى الزمنى للحدث ، فى الاندلاع والتغلغل فى كل شعاب النفس حتى يرسب فى أعمق عمق لها كأسى دفين وهم غير مبارح ، تغنى فى التعبير عنه مجرد كلمة عابرة لآن جرسـها المؤثر ، بعد أن كانت العبارات المدوية

بصراخها ولهيبها لا تستطيع ، بهذا الضجيج كله ، التخفيف من عنفه الظاهرى وحدته العاطفية الفجة ! ..

كذلك التعبير الشكسبيرى فى الفرح، فهو بين فرح « حيوانى » يكشف عن غباء وخسة ولؤم طبع، وفرح إنسانى يسمو ويشف حتى يعكس لونا من أفراح الملائكة فى ملأها الأعلى .

فشكسبير عن طريق اللفظ الذى يختاره ، وقد ينحته نحتا خاصا بفنه الخاص ، وعن طريق الجملة المصقولة وفق نسب « هارمونية » يخلقها بحسه الأدبى والفنى الباطن ، يعطيك شعورا نابضا بالألحان المتجاوبة فى صدق كله حساسية وانفعال ، وينقل الى حسك الباطن والظاهر ، فى وقت واحد ، تلك النشوة الشعورية الملهمة التى تحسها تحرك كل نوابضك حين تتوالى على أذنك أنغام معزوفة من المعزوفات العالمية ! .

فعطيل — على سبيل المثال — « سيمفونية » متكاملة الأنغام .. انها « سيموفونية » المجرم الولهان الذى توهجت شرارة الغضب والغيرة عنده الى حد الانتشاء بلذة الانتقام الحيوانية ، ولكن بعد أن يعيش ، هذا « النموذج » الخالد ، كل اللحظات الشعورية الجارفة ، العميقة ، التى تصب الاحساس المتمهل بالغيرة كأنه قطرات السم الزعاف فى شرايينه المحمومة بدمائها النارية ، حتى يصبح هذا الاحساس زلزالا يعصف بكل شىء ليحول كل شىء الى أنقاض ؛ فهو يذكرك بلحن من ألحان « ڤاجنر » التى تظل تشتد وتعنف حتى تسمع فيها زئير العواصف وقصف الرعود ..

وهاملت ، ذلك المزيج الغريب المعقد من الأفكار والمشاعر المتضاربة؛ ان سيمفونيته هى سيمفونية ذلك المجرم المخبول ، الذى وقع ضحية صراع ناهك قاتل بين عقله اللماح المشرق ، وعاطفته المشبوبة بشعلة مسمومة لا تنطفىء حتى تغتال العقل، وتغتال مع العقل كل شىء ..

وهكذا فى كل قصصه التى خلدها الزمن تخليده للأعمال الموسيقية العظيمة ..

بقى أن تعرف أن السر فى هذا يرجع الى أسباب منها :

أ — حرص شكسبير على أن يفهم أن الموسيقى ليست فنا فحسب ، بل هى ، الى جانب أنها فن له قوانينه وقيمه ، حقيقة اجتماعية تتكيف بظروف الزمان والمكان الى أقصى حد ، طردا وعكسا .

٢ ــ الدقة العجيبة ، التى ترجع الى الفطرة أكثر مما ترجع الى الثقافة، فى اختيار أنسب العبارات لأنسب المواقف ، حتى انه يفرغ أقصى جهده الفنى فى اختيار الموقف الذى تغنى فيه أغنية قصيرة ، وفى اختيار الشخصية المسرحية التى تغنيها ؛ أو فى وضع كلمة .. مجرد كلمة لا أكثر، على لسان بطل ، فى موقف ما ؛ لكنه موقف ينظم لك ، فى خيط سحرى دقيق ، حقيقة الدوافع التى تحرك أشخاص القصة ، وتلهمهم حوارهم .. وصمتهم !

٣ ــ تقمص روح الجمهور ، جمهور النظارة ، ليتحسس فى نفسيته مدى الأثر المترتب على كل كلمة ، وكل عبارة فى وجدان كل فرد من أفراد هذا الجمهور كأنما المسرحية ، بكل ما فيها من قيم تعبيرية ، موجهة الى هذا الفرد وحده دون سواه !!

بقى أن تعرف بعد هذا أن شكسبير لم يكن عالما بالموسيقى ، ولا كان معدودا فى عصره من كبار هواتها ، وان رزق بالفطرة حساسية التذوق لجمال التعبير الفنى الصادق ، فظل يعتصر كل ملكاته ومواهبه قربانا لهذا الخلق الفنى دون سواه .

ترى كم من كتابنا من يزن ، بميزان ذوقى مرهف ، ما يكتبه ؛ وكم منهم من يجيد «الخلق» الفنى ، وكم منهم من يجيد مجرد « الرص الهايف » للألفاظ والتعابير ؟ ! .

ان الكثيرين ممن يقتحمون اليوم ميدان الكتابة والانتاج الأدبى ، هم مع الأسف آخر من يعرف أن اقتحام هذا الميدان عزيز الا على من رزق حاسة فنية أصيلة نماها ، الى جانب التجربة ، الفهم الأصيل لقيمة الصقل والتجويد فى العمل الفنى الذى خلق ليبقى وليعاصر كل زمن ..

اننى أنصح ضحايا « الصحافية » من المتسرعين « الخاطفين » ، أن يدمنوا قراءة شكسبير ادمانهم لكثير من القراءات التافهة الرقيعة ليكسبوا لتفكيرهم « خمائر » فنية جديدة تعرفهم بموسيقى الحياة والنفس ، حتى يستطيعوا أن يكتبوا شيئا يستحق أن يقرأ ؛ وان لم تعجبهم قراءة شكسبير ، فليأخذوا النفس ، وهم فى حرم «الخلق الفنى» المقدس، بما أخذ به شكسبير نفسه منذ أكثر من أربعة قرون !

الواقعية فى التفكير :

ساءلت نفسى كثيرا : هل نحن

« واقعيون » دائما فى تفكيرنا ؟ أو بمعنى آخر ، هل « الواقعية » صفة مطلوبة لكل عملية ذهنية تجبرنا أو لا تجبرنا عليها ظروف الحياة ؟ هل « بضاعة » هذا الذهن الانسانى لابد أن نلمس أثرها المنعكس على الناس والأشياء والأخلاق ، فى هذا العالم الخارجى بالذات ؟

ان دعاة « البراجماتزم » ، والمتعصبين لفلسفتها ، يؤكدون لك ان كل تفكير لا يحقق ثمرة عملية محسوسة ، ولو فى نطاق بعينه من حياة صاحبه ، أو حياة المجتمع الذى يعيش فيه ، هو مجهود ضائع ، واهدار وتشتيت لقوى الذهن على غير طائل ! .

ولكن هل تقاس « واقعية » التفكير دائما بمقياس دعاة «البراجمتزم» وحدهم ؟ وهل هذا العالم «الخارجى» هو وحده العالم الوحيد الذى يتصف بصفة الوجود ، على حين ينعدم أى عالم سواه من وجود الناس ؟

أليست النفس بكل مكنوناتها ، وبكل رواسبها وأفكارها التى لا تزال « أجنة » لم تستو خلقا كاملا فى دنيا الحواس ، عالما لا يقل عن عالم الشهادة عمقا فى أبعاده ، وسعة واشتباكا فى الروابط والعلاقات والحقائق والأوهام التى تموج فيه منذ أزل الحياة ؟

أليس هناك جانب خفى فى النفس ، أو فى الذهن ، أو فيهما معا ، تنضج على ألسنة لهبه الخفى ، المسحور ، قدراتنا وملكات الخلق والأبداع فينا ، حتى لنحس كثيرا أن هناك فى عالم النفس ، مستكنا فى سراديبه العميقة ، أفكارا أو « مشروعات » أفكار ، تتوافق تارة وتتناقض تارة ، وتحملنا على أن نتحمس لها حينا ، وعلى أن نثور عليها حينا آخر ، وعلى أن نقف منها على الحياد ، راضين أو مكرهين ، حينا ثالثا ، حتى لنحس أنها تعيش فى أعماقنا كمخلوقات حية ، تتحرك حركاتنا وتنزو نزواتنا ، ولها ما لنا من آمال وشجون ، وتظل فى اضطرابها الخفى هذا حتى تتيح لها الظروف مخرجا الى عالم الظاهر فتتنفس تنفسنا ، وتعارك الحياة عراكنا ..

ترى هل هذه الفترة ، فترة الجيشان الباطنى ؛ فترة المخض والنضج على لهب النفس المسحور ، هل كانت تفكيرا واقعيا ؟ وهل اذا لم نستطع أن نخلع عليها صفة التفكير

الواقعى الذى خرج الى عالم «الوجود»، هل خسر بها وجودنا شيئا كثيرا ؟

يتصدى لهـــذه المشكلة الباحث النفسانى الفرنسى «فيلكس داسيل» فى مؤلف حديث له عنوانه « وجودنا بين الوهم والحقيقة » ذهب فيه هذا العالم الى أن التفكير « الايجـابى » نوعان : تفكير واقعى وتفكير خيالى .

وهو يؤكد أنه ليس من الصـــحيح ما يذهب اليه البعض من أن التفكير الذى لايبنى على الوقائع المحققـــة علميا ، أو التى نعيشها اجتماعيا ، هو بمثابة اهدار أحمق لقوانا وتشتيت لكيانـــنا النفسى ، اذ كثيرا ما يكون التفكير الخيالى مجديا جدوى التفكير الذى نصفه ، تزمتا ، بأنه واقعى ؛ بل هو ــ على حد قوله ــ ضرورى فى أحيان كثيرة ، لأنه يصـــور أمام أعيننا « المثل الأعلى » ويحدد لنا هـــدفا ، فهو نافـــع لكلا الانســـان والحضارة ، انهما لايستطيعان العيش بل « مثـــل أعلى » أو هـــدف ، بدليـــل أن أعظـــم التحف الفنيـــة والمنتخبات الأدبيـــة ، بل أعظـــم المخترعات التى رفعت مســـتوياتنا المعيشية هى ثمرة هـــذا اللون من التفكير « السارح » ! ان الخيال هو أعظم منحة جادت بها علينا الأقدار ، وهو الميزة الخـــالدة التى ميزتنا بها الطبيعة ، وجعلتنا نحكم بها الطبيعة !

فعليك بأن تتيح لذهنـــك ، بين وقت وآخر ، سرحات خيالية ، كثيرا ما يجىء فى أثرها الالهام الخالق الذى يمنحك فرصة العمـــر كما منحها لكثيرين من قبلك !

رسالة الرجل الأبيض فى عصر الذرة!

أى حضارة هذه ، التى يســـيطر عليها « الضمير » الأوروبى ؟ .

أتراها حضـــارة عقـــل وليســـت حضارة ضمير ؟ أم هى حضارة جردت نفسها بنفسها ، أو جردتها دوافعها العمياء من كلا العقل والضمير ؟ .

ظل العقل الأوروبى ، منذ أواخـــر القرن الثامن عشر ، بعـــد أن هـــزت « عالم القيم » ثورتان هائلتان همـــا الثورة الأمريكية والثورة الفرنســـية، يزعم أن « الضمير » يقوده الى أسعد مصير تتخيله الانســـانيـــة لنفســـها ، ولأجيالها المتعاقبة . . ولكن الأحداث المتعاقبة خلال أجيال امتـــدت قرنا ونصف قرن ، نقضت هذه الدعوى من أساسها ، دعوى هيمنة الضمـــير والعقل على الحضارة ، وبتنا والهلع يكاد يسلخنا من ذات أنفسنا لأننـــا

لا نعرف أية قوة شريرة تسوقنا ، برغمنا ، الى مصير نخشاه ، لا لأننا نجهله ، بل لأننا نعرفه ، ونحن نعرفه مقدما لأننا شاركنا فى صنعه بأيدينا ، أى أن عقولنا وضمائرنا اشتركت معنا فى سوقنا الى هذا المصير ؟ ! ترى ما الذى بقى للحضارة الأوربية كى تفخر به ؟ .

ان العقل أفلت منها قياده ، فهو اليوم قوة « جبارة » قهارة ، لاتتحكم فيها الأنابيق والبوتقات ، والآلات والعدد ، لأن العقل الذى خلقها وسواها أدوات ووسائل فى يديه ، لايمكن أن يخضع لها بطبيعة الحال ، اذ لا يعقل أن يتحكم مخلوق فى توجيه ارادة خالقه ، والثورات العلمية ووسائلها من بين مخلوقات العقل لا جدال ! !

والضمير ؟

ان الضمير ، أيا كان اجتهادنا فى تعريفه وتحديد وظائفه ، لازال منطقة غامضة تماما ، يبلغ من خفائها أن تتبدل مقاييسها وأحكامها بين قوم وقوم ، وبين حقبة وحقبة ، فهو زئبقى ، أو لولبى ، أو أحمق ينتقل من النقيض الى النقيض ، فى لحظة أو فى لمحة طرف ! ! .

أليس الضمير مقترنا بفلسفة « القيم » ، فلسفة الخير والشر ؟ وأليس الخير والشر نسبيين ، يتبدلان بتبدل الظروف والأحوال ، والظروف والأحوال تتبدل هى الأخرى بتبدل الزمان والمكان ؟ ! .

قد يسوقنا التسلسل المنطقى الى هذه النتيجة العجيبة ، ولكنه منطق « ظاهرى » لا يمس الأعماق ، أما المنطق الذى اهتدت اليه البشرية فى أعمق أعماقها ، لأنها عاشته لحظة لحظة ، بكيانها وأعصابها ودمائها وعقلها وقلبها ، واستخلصت عبره بعد تضحيات خيالية قد لا تدخل فى تصور انسان ، منذ أزمان سحيقة ، هذا المنطق يحتم وجود منطقة « محايدة » ، منطقة « حرام » ، تتمتع فيها «بعض» القيم بالاستقرار والدوام ، على الأقل فى « جوهر » معناها الميسور ادراكه ادراكا «فطريا» من كافة الأفهام والعقول ، ولو كانت محدودة الحظ من الاستنارة والمعرفة ، بمقاييسنا العصرية ! . .

من أجل هذا نادى سقراط قديما بمفهوم « الفضيلة » الذى لا يتبدل ولا يتخاذل ، لأنه مفهوم « المعرفة » المطلقة التى تكشف أمام العقل ذلك المجهول الذى يعوق على الأرض سعادته ، وتطوره الخالق . . ونادى

من بعده أفلاطون بنظرية « المثل » ، ونادى الرومان بنظرية « القانون الطبيعى » الخالد المبادىء والقيم ، رغم تبدل الزمان والمكان ! . .

لقد أقرت حضارة اليونان والرومان مبدأ سيادة العقل والضمير على الحضارة ، ولو جاءت أفعال اليونان والرومان ،فى بعض عصورهما التاريخية ، مناقضة لهذا المبدأ الأسمى . . ومع ذلك فان هذا الاقرار ذاته فضيلة تذكر لهاتين الحضارتين!.

أما حضارة أوروبا ، الحضارة التى كان مفروضا أنها ارتفعت الى أوجها الأخلاقى بعد اندلاع الثورتين الأمريكية والفرنسية ، وارتقت بالتجربة المرة ، خلال حربين عالميتين، أوجا آخر أعمق وأرفع ،حين جسمت الى الوجود يوتوبيا « عصبة الأمم » وخليفتها « هيئة الأمم » .. حضارة أوروبا هذه تثرثر كثيرا بالعقل وبالضمير ، ولكنها اليوم — وبعد حربين عالميتين مروعتين — تندفع اندفاعا أخرق أبله ،بلا عقل ولاضمير، كل هذا بسبب نظرية مشئومة ، أو عقيدة مخبولة ، هى « رسالة الرجل الأبيض » ! ! .

كانت هذه الرسالة تفرض على الرجل الأبيض فى عصر الاستكشافات الجغرافية (وهى استكشافات فى نظر الجهالة الغربية وحدها فقد كانت للبقاع المستكشفة حضارة أعرق من حضارة أوروبا وقتئذ) كانت الرسالة تفرض أن يستعمر الرجل الأبيض منادح الخيرات والخامات الجديدة ليعتصر منها القوت والذهب ،بدعوى تحضيرها ورفع مستويات معيشتها، مع أنه يفجر بها ويستعبدها ليخلفها بلا قوت ولا ذهب ، ولا خلق ! ! .

لقد تنكر الرجل الأبيض للأساس المعنوى لحضارته ،وأولى ظهره لتراثه الذى يتيه به ويفخر ... تنكر لقيم الحضارتين الأغريقية والرومانية ، تنكر للأولى فى مفهومها الذى صورت به « الفضيلة » ، وللثانية فى مفهومها الذى صورت به عدالة « القانون الطبيعى » الخالد على مر الأزمان . .

من أجل هذا لاتعجب اذا شاهدت من آثار تطبيق هذه الرسالة ، رسالة الرجل الأبيض ، فى دنيا الناس والأخلاق ، شعوبا لها مقوماتها العنصرية والثقافية المستقلة يراد لها أن تندمج برغمها فى شعوب أوروبية أقوى منها ، لأن منطق القوة الذى يساند هذه الرسالة هو وحده الذى شاء ذلك ! ! كما لا تدهش اذا كان روح المنظمات الدولية ، القائمة

على مبادىء أخلاقية ، يفسر بأكثر من تفسير ، ويعطى أكثر من مدلول ، حسب المصلحة ووفقا للأهواء التى تعيش على التضليل والسحت ، فتحبس مثلا ملايين عديدة من البشر فى نطاق جغرافى وسياسى بعينه ، لايجاوزونه الى هذه الرحاب الجديدة المشتركة ، الرحاب التى خلقتها هذه « اليوتوبيات » والمنظمات العالمية لتحقيق الوفاق والتفاهم الانسانى فى مطلق معناه ، ولمباركة التعايش السلمى ، سياسيا واقتصاديا وعلميا ، بين الجميع ، ومن أجل خير الجميع .. ومن أجل تحقيق « الضمير الكونى » للجميع .

واحد من أمرين : اما أن تؤمن الحضارة الغربية بأفلاس رسالة الرجل الأبيض افلاسا نهائيا ، لتؤمن بعد كل هذه التجارب والمحن برسالة « الانسان الواحد الجوهر » فى كل زمان ومكان ، الانسان الذى لا تزلزل طمأنينته ولاتجنى على كبريائه فوارق اللون والجنس واللغة والعقيدة والنظام السياسى ، واما أن تنتظر زوالها الوشيك على يد غول جديد عملاق ، ليس هو غول الذرة ، بل هو « وعى الشعوب » ، وسلطان الرأى العالمى العام ، فلقد آذن فجرهما ببزوغ قريب .. بل لقد بزغ فجرهما فعلا ، وغمرت العالم من أقصاه الى أقصاه أنواره العملاقة ، وعندئذ ستأخذ الحضارة ، فى كل مكان ، مدلولها الانسانى الأصيل ، رغم كل هذه الفوارق ، ورغم المؤمنين ايمانا متهوسا برسالة « الرجل الأبيض » ، عليها رحمة الله بل لعنة الشيطان .. ونحن نعرف النتيجة مقدما ! .

سلامة موسى بين ذكرى وذكرى

هزتنى خسارة الصحافة والفكر فى بطل من أبطالهما النادرين فى طرازهم ومذهبهم فى الحياة ، ودهمت مشاعرى فجيعة الثقافة الانسانية التى لاتعرف تخوم الأجناس والأوطان ، فى واحد من أخلص روادها ، بل رسلها ..

وسنظل نحن الشرقيين ، من العرب ، نذكر سلامة موسى كلما ذكرتنا الأحداث و « العجائب » التى تجرى من حولنا ، أننا أمة تعيش اليوم فى ظل معجزة تصنعها لنفسها بنفسها ، منذ أن طلقت حياة الجمود والخرافة ، وآمنت بعقيدة الكفاح فى ظل المعرفة العلمية المنظمة ، والطموح الى أن تحيا — وهى بعد مقيدة بحاضرها « الجديد » — فى صميم مستقبلها العظيم المرتقب بعد عشرات قليلة من السنين ! ..

كان سلامة موسى واحدا من أولئك «المستقبليين» Futurists المؤمنين بقانون النشوء والتطور ، لا فى مفهومه « الطبيعى » فقط ، بل فى مفهومه الاجتماعى والاقتصادى أيضا ، وكانت كتاباته التى تدور حول العواطف والأخلاق والعادات والعقل والعلم والتصنيع ، تذكرنا بكتابات ويلز والدوس هكسلى وراسل ولودچ وآرثر كيث ، وسائر هذا الرعيل الرائد من الحالمين بصورة أفضل وأسعد لمستقبل الانسان .

ولست هنا بصدد تأبين هذا الراحل ، العزيز على الآلاف المؤلفة من محبيه ، فان هذا الواجب لا يمكن أن ينهض به الا «العصبة أولو القوة » فضلا عن أن هذه السطور المحدودة النطاق تضيق عن الوفاء بهذا الواجب على الوجه الذى يرضى من تأثروا بأسلوبه وأفكاره ، وما أكثرهم فى كل مكان ! .

ولكنى بصدد رسم صورة سريعة لتفكيره ، تدل دلالة معبرة على شخصيته الثقافية ، وذلك من خلال حادثتين لازلت أذكرهما الى اليوم ، فلن أنساهما ما حييت . .

أما الأولى ، فحدثت أيام تعرفى الأول به ، عن طريق كتاب مشهور من كتبه الأولى ، هو «اليوم والغد» . كان ذلك فى ربيع عام ١٩٢٨ ، وكنت أتأهب للحصول على « الابتدائية » ، وأحاول بنصيحة أستاذى فى اللغة العربية ، أن أقوى من أسلوبى الانشائى ، بتذوق آثار الكتاب المصريين فى كتبهم ، لا فى المجلات التى يراسلونها فحسب . . ووقع هذا الكتاب فى يدى اتفاقا . ولكن «والدى» الذى نشأ — بحكم بيئته — « تقليديا » فى تفكيره ، متزمتا فى آرائه وأحكامه ، ما ان رأى هذا الكتاب فى يدى ، حاملا اسم « سلامه موسى » ، حتى انتفض انتفاضة رهيبة ، وصرخ فى وجهى صرخة هائلة أبكتنى بعد أن أفزعتنى ، وكان أن ذقت من صفعات يديه علقة « ساخنة » لا أنساها ، بعد أن مزق الكتاب أمام عينى شر ممزق ، وهو ينعت صاحبه فى صخب ثائر بـ « الكفر والزندقة والالحاد الذى ما بعده الحاد » ! ! .

وبطبيعة الحال ، لم تفلح هذه الحادثة فى شفائى من داء ادمانى ، خفية ، لكتابات سلامة موسى ، بل على العكس جعل الداء يستفحل على مر الأيام والسنين الى أن كبرت ، وأدركت أكثر من ذى قبل قيمة الرجل . .

فلقد آمنت بأنه يقدم لقرائه وجبات دسمة من الفكر الخالص ، الفكر الذى ينزع منزع التجديد والتطور ، والتطلع الى المستقبل ، فى أبسط أسلوب ، وبأقل العبارات بريقا وكلفة . . وهكذا عاش الرجل يصدم مشاعر الجامدين «القوقعيين» فلا يملكون الا أن يحاربوه ب « تهمة» الكفر والزندقة ! .

أما الحادثة الثانية ، فقد وقعت أمامى أيضا ، بعد الأولى بثلاثة عشر عاما ونيف . . كان ذلك فى عام ١٩٤١ وكنت أزامل الراحل الكبير فى تحرير « مجلة الشؤون الاجتماعية » ، وكان من بين المحررين فيها المرحوم الأستاذ محمد الههياوى ، وكان مشهورا بجزالة عبارته ، وبصياغة لفظية « عملاقة » تكشف عن ادلال كبير بالثراء اللغوى « المواتى » ، أكثر مما تكشف عن فكر علمى عميق ، جدير بالتأمل والنظر ! .

وانتهزت فرصة اجتماعهما ذات يوم ، بغرفة رئيس التحرير ، وكان الأستاذ سلامه يأخذ على ، وقتئذ ، شدة استغراقى فى كتب الجاحظ والمبرد وابن قتيبه وأبى الفرج الأصفهانى الى حد يكاد يفسد على — فى رأيه — أسلوبى فى التفكير والكتابة ، رغم أن ثقافتى القانونية جديرة أن توجهنى الى عكس هذا الاتجاه !.

وسألت الأستاذ الههياوى فى تخابث :

— لقد نصحنى البعض بقراءة الجاحظ ، والحرص على استظهار عباراته ، والتأمل المتمهل فى طريقة صياغته لأساليب الكلام ، فما رأى الأستاذ فى هذا ؟ !

ورد الأستاذ بعد فترة صمت وجيزة :

— وهل هناك شك يا أخى فى أن « امامنا » الجاحظ (كذا) سيظل الى آخر الزمان علم الأعلام فى فقه البلاغة العربية ، وفى ابداع صور مبتكرة من النثر الفنى الذى يلائم كل الأذواق ؟ . اننا لا زلنا نعيش « عالة » على « مائدته » !.

— اذن فأنت ترى أنه لابد من تجويد الديباجة أولا ، والاهتمام بأسلوب المقال ، ولو على حساب « الفكرة » أحيانا ؟ ! .

— خذ نصيحتى : الأسلوب أولا، وبعد ذلك تجىء الفكرة من خلال الكتابة (!!) ان الكاتب ذا الأسلوب لن يعدم فكرة من الأفكار يتلقفها تلقفا ولو من عرض الطريق . . أو حتى من

جامع القمامات ! ولكن الأسلوب القوى الرصين لا يمكن تلقفه ..

وهنا لم يطق الأستاذ سلامة صبرا فوق ماصبر ، وكنت أرمقه خلال ذلك من طرف خفى ، فقد ثار ثورة عاتية فى وجه الهيهاوى ، وصاح فى حرارة المؤمن بما يقول :

ــ اننا لن نحرر فكرنا وثقافتنا وأسلوبنا ، ونعرف أن لنا رؤوسا تعقل ، لا « طواحين » تجعجع ، الا اذا جعلنا أكثر هذه الكتب فى جملة « الآثار » والمخلفات بالمتاحف (كذا) ، ولن نخسر بذلك شيئا ! .

واشتجر خلاف عنيف بين الكاتبين ، اشترك فيه البعض بين مؤيد ومعارض ، وواقف على الحياد مثلى ، وكاد الأمر يتطور الى تبادل الألفاظ اياها «ألفاظ الكفر والزندقة»، لولا تدخل رئيس التحرير ليحسم العراك ويفض الخصام ! ولكن أذنى التقطت فى تلك اللحظة قول الأستاذ سلامة ، فى معرض رده على ادلال مجادله بتفوق فى رصانة الأسلوب وبلاغة العبارة :

ــ انني أقدم لقرائى « فهما » ولا أقدم « زركشة » ! . اننا فى غير حاجة الى « انشا » قدر حاجتنا الى فكر يمكث فى العقول ويدفعها الى التطور والى الثورة على الأوضاع البالية فى كل ميدان ..

وأيا ما كان رأى المؤيدين أو المخالفين ، أو حتى الواقفين على الحياد ازاء هذه المعركة التى تشتجر أشباهها بين وقت وآخر ، فقد كان المرحوم سلامه موسى متميزا بأنه يقدم لقرائه « فهما » يقبلون على تلقفه ، ولو ذاقوا من أجله « علقة ساخنة » وتعرضوا للتهم اياها فى بعض الأحيان ! .

(ص.ا.ش)

حقوق الشباب للمستقبل !

.. عجبا ! لماذا نقول : واجب الشباب للمستقبل ؟ أين حق الشباب للمستقبل ؟ ! كل واجب يجب أن يقابله حق ، وحين يقال للشباب عليكم أن تفعلوا كذا .. وعليكم .. وعليكم ، فيجب أيضا أن يقال بجانبه لكم .. ولكم .. ولكم ! كل واجب فى دنيا الدساتير والفقه السماوى والفقه الوضعى يقابله حق ، وكل التزام يقابله واجب على الطرف الثانى . اعطنى سلطة أعطك المسؤولية ! .

محاضرة لفكرى أباظه نقلا كن كتاب
« واجب الشباب للمستقبل »

العودة الى الحياة
وهل هى حقيقة أم خيال ؟

للاستاذ سليمان حلمى

هل حقا نعود بعد الموت الى الحياة الدنيا ، ونلبس جسما ماديا آخر لنكافح ونحب ونكره ونفرح ونحزن ونحقق الأهداف التى قصرنا عن ادراكها فى حياة سابقة لقصرها ؟ لو صح ذلك لأحدث فى أفكار البشر ثورة فلا يعودون يتحسرون على الماضى أو يعيشون بغير أمل مهما جد بهم العمر. انك ستتيقن بعد قراءتك هذا المقال أنك سوف ترجع الى الحياة بعد الموت لا مرة واحدة بل مرارا عديدة، وأن علاقتك بالحياة الدنيا لا تنفصم عراها بطرح الجسم المادى بالموت . انه حقا سيدفعك بعد قراءته الى مضاعفة مجهودك فى الحياة الحاضرة فى أمل وتفاؤل . وكما شكلت نظرية داروين تفكير المفكرين فى القرن الماضى فان عقيدة العودة الى الحياة سوف تغير آراء الناس فى هذا القرن العشرين .

والواقع ليست الدنيا على رأى شكسبير الا مسرحا ، وكل انسان يقوم بدوره عليها وانا لنتساءل ماذا يحدث للممثل بعد انتهاء دوره حين يخلع ثوب التمثيل ، لذلك نتساءل : ماذا يحدث للانسان بعد مايطرح عنه رداء الجسد بالموت ؟

ان نصف سكان هذا الكوكب الأرضى ، فى الهند والصين واليابان ، يرون أن الانسان يحيا بعد موته فى أجسام أخرى أكثر شفافية ثم يعود الى الدنيا بين آونة وأخرى ليتلقى دروسا جديدة ويجنى ثمار أعماله التى بذر بذورها فى حياته السابقة ، خيرة كانت أم شريرة . فقد جاء فى كتاب الهند المقدس « الأوبانيشاد » أن الروح لا تموت ولا تولد ولا تتغير بل تبقى الى الأبد ، والموت لا يقربها حتى ولو بدا أن مسكنها الأرضى قد هلك .

ان أصحاب هذه العقيدة يرون أن الانسان يصعد سلم الترقى الى الكمال الروحى عن طريق حيوات متوالية على الأرض ، وهذه العقيدة مصدر سلوى والهام لمعتنقيها ، فشيوع الظلم فى أقدار الناس وتفشى الألم وشقاء الفضيلة واستعلاء الرذيلة وغموض

الحياة ، والتشاؤم من مصائرها ، ونبوغ بعض الأطفال دون دراسة ولا اختبار، وتذكر بعض الناس لوقائع تاريخية بعيدة ، كل هذا لا يمكن تفسيره الا بأن هذه الحياة ليست الا حلقة من سلسلة متصلة من الحلقات تأتي الواحدة نتيجة للأخرى وتكون الواحدة علة وسببا للأخرى ، ومن ثم فان العدالة الالهية تسود العالم رغم ما قد يبدو من اجحاف ظاهري فيها .

ويقول الثيوصوفيون : أنه لكى يتهيأ للانسان عدد كاف من الاختبارات والفرص التى تحقق له الكمال الروحى والعقلى والبدنى ، يلزمه أكثر من حياة واحدة لصقل مواهبه وسد ثغرات ضعفه ونقائصه ، ولذلك كانت عودتنا الى الأرض الفينة بعد الفينة بقصد التقدم صوب الكمال والمستقبل المأمول ، حيث السمو الروحى هو الشيء المعقول الذى يذكى الأمل والثقة والشجاعة فى نفوس المؤمنين به .

وقد يعترض متشكك فى صحة العودة الى الحياة اما لاشمئزاز من العودة الى الحياة فى الجسم المادى ، واما لشكه فى أن الرجعة الى الحياة قد تتضمن تقمص روح الانسان لأجساد الحيوانات أيضا ، وأما لأن عملية التجسد من جديد تتم بقوة خارجة عن ارادتنا ، واما لأنها تفرق بين الأحباب وتحول دون جمع شملهم مستقبلا .

وكل هذه الاعتراضات مردود عليها : فنحن لا نعود الى الحياة فى نفس هذا الجسد بظروفه الراهنة ، بل ان قانون الترقى يتبع بالنسبة للجسد الجديد ظروفا أكمل، ولا يعقل أن ينتكس التطور فيعود الانسان ليتقمص جسم حيوان ، أما قوة الاجبار على التجسد من جديد فتنتقل من الارادة الالهية الى «جوهر» الذات الروحية لأنهما واحد ، ومن ثم ينشأ دافع الروح للتعبير عن الذات فى أشكال مادية متطورة بغية السعادة والهناء ، ولهذا تتحين الروح الفرصة عن طيب خاطر للعودة الى الحياة لبلوغ زيادة التقدم وتجد فى سيرها صوب الكمال فى أثواب مادية جديدة . أما الاعتراض بفراق الأحباب فمردود عليه بأن الموت الجسدى لا يستطيع أن يفرق بين عرى روحية أو عقلية اذ أنها تنشىء اتحادا يجعل العودة الى الحياة يتم فى نفس الوقت والظروف حيث تنجذب النفوس المتوحدة وتتوثق عرى المحبة من جديد فى ظروف جديدة قد لا يدركها العقل ولكن القلب يحس فيها بالرضى والشبع .

وزغم اعتراض بعض المسيحيين على مبدأ العودة الى الحياة بعد أن اعتبره مجمع القسطنطينية سنة ٥٤٣ الحادا الا أن المسيحية نفسها تقرها وتسلم بها ولا يمكن أن تؤثر فى الحق قرارات مجمع محلى كما لم تستطع كنيسة روما أن تسفه رأى العالم جاليليو حين نادى بمركزية الشمس وان أكرهته « وقتيا » على نقض ما قال ! ان المسيحية ترى أن النفس البشرية تتدرج فى الحياة الروحية حتى تصل الى أرفع مستوى للكمال الانسانى الذى وصفه الانجيل بأنه « ملء قامة المسيح » (أف ٤ : ١٣) أو الكمال الذى على شاكلة كمال الله (مت ٥ : ٤٨) وقد ذكر الكتاب المقدس أن يوحنا المعمدان (يحيا بن زكريا) هو نفسه ايليا جاء ليعد الطريق للمسيح : ملا ٤ : ٥ ، لو ١ : ١٧ ، مت ١١ : ١٤ ، ١٧ : ١٠ ـ ١٣ ، مر ٩ : ١٣ ، يو ١ : ٢١ـ٢٥ ، وبذلك يمكن أن يتحول طلب المسيح « كونوا كاملين » الى الوعد : « سوف تكونون كاملين عبر أجيال تتكرر عودتها الى الحياة الدنيا لتكملة رسالة هذا الكمال.

والقصص التى تؤيد الرجوع الى الحياة كثيرة وقد سجلت بعضها مجلات عالمية محترمة ، ولعل القارىء قد صادفته خبرات من هذا النوع هو أو أحد معارفه ، والى القارىء بعض الشواهد على ذلك :

يذكر الكولونيل دى روشاس فى كتابه « الحيوات المتعاقبة » اختباره للتنويم المغناطيسى فى عدة أشخاص أمكنهم الرجوع بذاكرتهم الى الماضى السحيق فى حيوات سابقة ، فذكرت فتاة صغيرة عديمة الثقافة حوادث وعادات قديمة لا يلم بها سوى القليلين!

وهناك قصة السيدة رينيود مساعدة الدكتور درفيل بباريس ، كانت تلازمها منذ طفولتها رؤيا منزل عتيق فى متنزه جميل تحت سماء الجنوب الصافية وهى تخطو فيه حزينة سقيمة ، وقد أكدت أنها ماتت فيه بداء السل فى الخامسة والعشرين منذ مائة عام ، وفى رحلة لها الى جنوا سنة ١٩١٣ تعرفت فورا على مكان « تجسدها » السابق ، وكانت تتقدم أصدقاءها فى تجوالهم بالمدينة حتى عثرت على المنزل ، ونشطت ذاكرتها برؤيته فقالت انها دفنت فى الكنيسة لا بمقابر الأسرة . وقد عثر دكتور درفيل فى سجلات الكنيسة على قيد فى٢٣ سبتمبر ١٨٠٩ يؤيد كل ماذكرته السيدة رينود . وقد ذكر وسيط شديد الحساسية أثناء تنويمه

مغناطيسيا تفصيلات حياة هذه السيدة فى جنوا ، ثم هتف قائلا انها السيدة رينود بعينها .

وذكرت الصحيفة الثيوصوفية بالهند بعدد يناير/فبراير ١٩٣٦ قصة صبية هندية فى الثامنة والنصف من عمرها أفلحت فى اقتفاء أثر منزلها الغابر والتعرف على أقاربها فى حياتها المنصرمة . لقد ظلت خرساء مكتئبة متأملة حتى بدأت سنتها الرابعة حين شرعت تتحدث عن منزل لها فى بلدة مأثورا على بعد مائة ميل من دلهى . وقد صمم محام ، جار للعائلة أن يستقصى حقيقة ما تقول الفتاة بعد أربع سنوات أخرى . لقد كانت تقول أنها كانت متزوجة ولكنها كانت تأبى ذكر اسم زوجها مراعاة للتقاليد الهندية ، ولكنها ذكرت أنها كانت أم طفلين مات أولهما ثم ماتت هى بعد مولد الثانى بعشرة أيام . وقد ذكرت اسم صهرها وأعمال زوجها ، وتوفر النقود والحلوى فى منزلها القديم ؛ وعن طريق رفيقاتها فى اللعب عرف منها اسم زوجها ك . ش . من ماثورا . وكانت الفتاة تلح على والديها كى يصحباها الى منزلها القديم كما ألحت بذلك على مربيتها التى اشترطت معرفة اسم زوجها فخطت الاسم السابق على الورق ، وبالاتصال بصاحب الاسم أكد أن حوادث حياته وأوصاف المنزل كانت تطابق ما ذكرته الفتاة . بيد أن الفتاة لم تفلح فى الذهاب لبيتها القديم لعدم وجود صداقة بين الأسرتين . على أن زوجها القديم لم يلبث أن صحب ابنهما الى دلهى فعرفتهما وبكت وهى خافضة الرأس وذكرت لهما تفصيلات عن خفايا جسمهما وهوايات زوجها ، وأيدها الزوج وتوثقت الصداقة بينها وبين الصبى وتأيد الدليل على عودتها للحياة بعد سنتين وثلاثة أشهر من وفاتها . وحين خرج زوجها القديم فى جولة بدلهى طلبت من أمها تقديم ألوان معينة من الطعام كانت هى المفضلة لديه .

وفى كتاب « مغامرات فى الجزيرة العربية » لسيبروك جاء أن منصور أطرش من جبل الدروز تزوج من أم رمان وهى فى الثانية عشرة ثم قتل فى غارة فى نفس الوقت الذى ولد فيه طفل دعى نجيب أبو فاراى . وما ان بلغ هذا العشرين حتى تصادف ذهابه الى موطن منصور أطرش فتعرف على قريته حين كان فى جسد منصور أطرش وأظهر كيس نقود كان قد خبأه هناك !

وفى عدد مايو ١٩٤٤ من مجلة

« لايف دايجست » جاء أنه فى سنة ١٩٢٢ كان فى مدينة باريللى بالهند طفل فى الثالثة أرهق والديه بطلب الذهاب الى مدينة بلبهت حيث تلقى العلم فى حياته السابقة، وذكر تفصيلات عن أملاك أبيه وطباعه ، وعن دراسته هو . وحينما ذهب الى البيت أشار الى صورته وذكر تفاصيل خاصة أيدها الجميع .

وقد أقسم فيلدنج فى كتابه « روح الشعب » على صحة تجسد فتاة فى السابعة كانت فيما سبق رجلا يعمل « قراقوزا » وتزوج من أربع نساء على التوالى ، وطلق الثالثة لسلاطتها بعد أن تركت على كتفه أثر ندبة بساطورها كما كانت الرابعة حيث ترزق ، وقد وصفت أناسا عرفتهم فى حياتها السابقة .

وفى عدد يوليو سنة ١٩١٥ من « المجلة الأمريكية » ذكرت كاتبة رسامة أن أختها آن كانت غريبة فى خلقتها وخلقها وقصصها التى تنطوى على الخبرة ، وحين غضبت مرة من أبيها هددت بمفارقته قائلة انها كانت فيما مضى فى القمر وأحيانا كانت امرأة وأحيانا رجلا عاش فى كندا باسم لوشيس فابر ، كان ضابطا استولى فى احدى المعارك على الأبواب . وقد تأيدت هذه القصة التاريخية بحذافيرها !

وليس تذكر أحداث الحيوات السابقة هو كل شيء للدلالة على صحة العودة الى الحياة فوجود هذا التذكر عند البعض يعد استثناء أما القاعدة فهى نسيان العقل الواعى كل ما يتعلق بالحيوات السابقة . بيد أن العقل الباطن لا ينسى ، ولذلك تعزو الثيوصوفية القدرات الفطرية والحب والكراهية لأول نظرة الى خبرات سابقة ، كذلك هناك أطفال ينبغون بلا تدريب فى أحد شئون الحياة الدقيقة ، والى القارىء أمثلة من ذلك.

فقد ذكرت صحيفة « نيوزيلند هيرالد » بعدد ١٩٤٨/٣/٢ أن الطفل فروشيو بورجو قاد فرقة عزف من ٨٠ قطعة فى بهو كارنيجى وهو فى الثامنة ببراعة حاز بها اعجاب النقاد . وفى نفس الصحيفة بعدد ١٩٤٨/١/٢٨ جاء أن طالبة تدعى كارول بمدينة جلاسجو أمكنها وهى فى الثانية أن تنشد المارسيلييز بالفرنسية ، وأن تقرأ وهى فى السابعة جمهورية أفلاطون وغيرها وتحصل فى اختبار الذكاء على ١٨١ درجة فى حين حصل الخريجون بمرتبة الشرف على ١٤٠ درجة فقط .

وفى عدد فبراير ١٩٤٧ من مجلة «الريدرز دايجست» جاء أن الموسيقى موتزار نبغ فى عزف السيمفونيات وهو فى السابعة ، وكان يرتجل النغم على آلة الطرب القديمة والأرغن سنة ١٧٦٣ بألمانيا كما أمكنه أن يكتب النوتات الموسيقية قبل أن يستطيع قراءة الحروف . وتتسم مصنفاته التى قام بها وهو فى السادسة بالفواصل الافتتاحية التى تميزه عن سواه وتقطع بأنها ملهمة .

ان مواهب بعض الأطفال غير العادية ونبوغهم هى ثمرة حيوات سابقة أتقنوا فيها ما برزوا فيه فى حياتهم الحديثة ولا تعليل لذلك الا نظرية العودة الى الحياة .

صبر الشعوب

يقول آلدوس هكسلى ان أعجب صفة فى الشعوب هى : الصبر ! فالملاحظ أن الشعوب كانت فى الغالب راضية عن حاكميها ، وأنها تحملت من الظلم فى شتى الظروف ما لا يحتمل .. حقا ان صبرها كان ينفد أحيانا فتنفجر ثائرة ، ولكن الثورة كانت استثناء ، أما القاعدة فهى : الرضوخ والاذعان !

ويرجع هكسلى هذا الصبر الى الجهل ثم الخوف ، ثم ارتباط الفرد بمجتمعه . فالذين لم يعرفوا فى حياتهم سوى الظلم يجهلون أن هذا الظلم يمكن تغييره . ثم الخوف .. فقد يعرفون أن حياتهم تعيسة حقا ، ولكنهم يخافون اذا ثاروا أن يفقدوا الحياة نفسها . ثم يران احساس الفرد بتضامنه مع مجتمعه ، أيا كان ، مما يمنعه من الانتفاض عليه ، بدليل أن المحكومين كثيرا ما كانوا يحاربون ضد محكومين مثلهم .. من أجل حاكميهم !.

(من مقال له فى مجلة « وورلد دايجست »)

* * *

سأل أحد الصحفيين الممثل الهزلى بوب هوب :

— هل جربت الخوف ؟ .

— أنا لا أخاف أبدا ، وحين أكون فى خطر ، أظل باردا لدرجة أن أسنانى تصطك .

الموديل المليونير

قصة لأوسكار وايلد ترجمة وتلخيص الأستاذ محمد عاطف السعيد

لابد للمرء أن يكون ثريا ان أراد الحب ، فان الحب والفقر ضدان لا يجتمعان . ولكن هوجى لم يكن يعرف هذه الحقيقة . فقد اندفع فى حب لورا وهو مفلس خالى الوفاض !.

والواقع أن لورا كانت تبادله الحب، اذ كان وسيما حسن الهيئة حلو الحديث والعشرة ولكن أباها الكولونيل المتقاعد لم يكن يعترف بهذه الأشياء . وعلى الرغم من اعجابه بهوجى فانه لم يكن موافقا على زواج ابنته برجل مفلس . وقد قال له يوما :

ـ حينما تمتلك عشرة آلاف جنيه فتعال نبحث الأمر معا يابنى !! وقد أحزن هذا القول هوجى فأمضى أيامه بعد ذلك فى تفكير دائم لحل تلك المشكلة

وفى صباح أحد الأيام كان فى طريقه الى لورا ليشاورها فى الأمر . ولكنه عرج على صديق له من الرسامين يدعى تريفون . وعلى الرغم من أن تريفون هذا كان يبدو غريبا جافا فى مظهره الا أنه كان من الناجحين فى مهنتهم بحيث لاقت لوحاته رواجا كبيرا .



وحينما دخل هوجى عليه كان قد فرغ لتوه من لوحة رائعة بالحجم الطبيعى لرجل شحاذ رث الهيئة . وكان « موديل » اللوحة يقف على منصة خشبية فى ركن الاستديو وقد تهلهلت ثيابه وتمزق حذاؤه وعبر وجهه عن البؤس والعوز أصدق تعبير ..

وقال هوجى وهو يصافح صديقه :

ـ ياله من موديل معبر !

فتساءل تريفون دهشا :

ـ موديل معبر ؟ ..

ثم عاد يبتسم وقال وهو يمد بصره للشحاذ الواقف على المنصة الخشبية :

ــ بالطبع ! .. ان مثله لا يصادفه المرء فى كل يوم !! .

واستمر هوجى يقول :

ــ يا للمخلوق المسكين ! لكم يبدو بائسا ؟!

فأمن صديقه على كلامه وهو يغالب ابتسامته بقوله :

ــ بالتأكيد ! فلسنا نتوقع أن يبدو الشحاذ سعيدا !! .

فسأله هوجى :

ــ وبهذه المناسبة . كم يتقاضى على وقوفه هكذا أمامك فأجاب ثريفون :

ــ شلنا عن كل ساعة .

ــ وكم تقبض ثمنا للوحتك ؟ ! .

ــ مايقرب من ألفين !

ــ بالجنيهات ؟ !

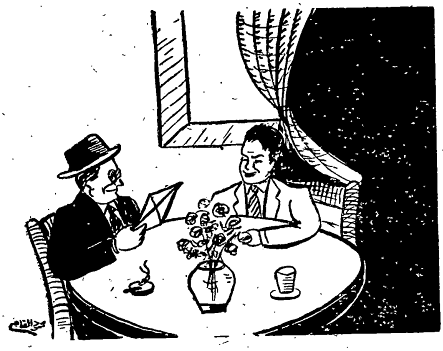
ــ طبعا ! !

فصاح هوجى ضاحكا :

ــ عليك اذن أن تعطى موديلك نسبة من الأرباح ! فهو يتعب فى عمله مثلك !

فصاح ثريفون أيضا :

ــ هراء ! فانك لاتعرف كم يكلف الفن صاحبه من الجهد . فأنا أقضى أحيانا اليوم كله أعمل فى اللوحة بينما



لا يفعل الموديل شيئا سوى الوقوف هكذا دون مشقة !!

ودخل فى تلك اللحظة خادم ثريفون ينبئه بحضور صانع اطارات اللوحات، فاستأذن من صاحبه على أن يعود بعد دقيقة . وحينما خرج ، انتهز الشحاذ العجوز الفرصة ليريح جسده المنهوك بالجلوس على المنصة الخشبية . وبدا منظره حينذاك متداعيا الى حد جعل هوجى يرثى له ؛ وقال فى نفسه وهو يبحث فى جيبه عن قطعة من النقود : ان العجوز البائس لابد وأنه يستحقها ! .

ثم اخترق صالة الأستديو ودس فى يد المتسول قطعة النقود فتمتم الرجل قائلا وقد لاحت على وجهه امارات الدهشة تصحبها ابتسامة باهتة :

ــ شكرا ياسيدى ! شكرا !! .

وغادر هوجى المرسم وأمضى يوما سعيدا مع لورا ثم عاد ليقابل صديقه فى النادى ليلا فوجده فى حجرة التدخين وجابهه بقوله :

ـ كيف حال اللوحة ياتريڤون ؟ لعلها تمت !

فأجاب الأخير :

ـ ووضعت فى إطارها أيضا . وبهذه المناسبة لقد سر الموديل العجوز منك كثيرا واضطررت تحت الحاح سؤاله أن أخبره الكثير عنك ! .

فصاح هوجى :

ـ أيها العزيز ! اننى سأجده ينتظرنى الآن أمام بيتى ولكنك لاشك تمزح ! . ومع ذلك فكم أود مساعدته، ذلك الصديق المسكين ! ؟! .. استمع الىّ : ان لدىَ عددا من الملابس القديمة فهل تظن أنه يهتم بأخذها ؟! انها على الأقل أحسن من تلك الخرق البالية التى كان يرتديها هذا الصباح ! .

فقال تريڤون :

ـ ولكنه كان يبدو عظيما فيها ! . ولم أكن لأرسم له لوحة لو انه كان يرتدى معطفا فاخرا . والآن أخبرنى كيف حال لورا ؟ لقد أظهر الرجل اهتمامه بهذا الموضوع حينما أخبرته به ! .

فصاح هوجى غاضبا :



ـ هل تعنى أنك أخبرته بأمرى معها ؟! مستحيل ! كيف تسرد على مسامع ذلك الشحاذ كل شئونى الخاصة ؟

وابتسم تريڤون قائلا : ـ

ـ ياصديقى العزيز ! ان هذا الشحاذ العجوز كما تسميه لهو من أغنى رجال أوروبا ! . وهو يستطيع أن يشترى لندن غدا ان أراد . وله منزل فى كل عاصمة وصحائف من الذهب الخالص بل انه يستطيع أن يمنع روسيا من الحرب اذا تراءى له ذلك !! .

وسادت بينهما فترة سكون تساءل هوجى على أثرها مذهولا .

ـ أى رجل هذا على وجه التحديد؟!

فأجاب تريفون : ـ

ـ انه البارون هوسبرج ! وهو صديق عزيز لى ويشترى كل لوحاتى وكان قد طلب منى منذ شهر مضى أن أرسمه كشحاذ . انها تسلية بالنسبة للمليونير . ولكنه كان يبدو شحاذا رائعا حقـــا .

وتمتم هوجى كالمأخوذ :

ـ البارون هوسبرج ؟! بحق السماء

فبهت تريفون قليــــلا ثم انفجر ضاحكا وهو يصيح :

لقد أعطيته نقودا اليوم !

ـ أعطيته نقودا ؟ إذن فقد ظننته شحاذا حقا !! .

ولكن هوجى تداركه قائلا :

ـ لقد كان يجب عليك أن تخبرنى بالأمر ولا تتركنى أتصرف كأحمق ! .

فقال تريفون وهو لا يزال يغالب الضحك :

ـ لم أكن أعتقد انك ستفعل هذا ! فمن المعقول أن تغازل موديلا حسناء !. ولكن أن تعطى نقـودا لموديل قبيح عجوز فهذا مالم يخطر لى ببال !! ولم أعتقد أيضا أن تتوقع منى أن أمضى الوقت باحثا فى الشوارع عن شحاذ يقف موديلا أمامى ، وفوق هذا كله ما أدرانى أن تكون رغبـــة المليونير ألا يذكر اسمه أمامك وهو بهذا المنظر ؟!

فتمتم هوجى بمرارة :

ـ لكم سيسخر منى ؟! .

ولكن تريفون قال مؤكدا :

ـ أبدا بالمرة . بل لقد كان فى غاية المرح بعد خروجك .

ولم أدرك أنا السر فى ذلك الا الآن !

وفى الطريق الى المنزل شعر هوجى فى تلك الليلة بتعاسة بالغة لما فعله .

وفى صباح اليوم التالى جاءه خادمه وهو على مائدة فطوره ببطاقة كتب عليها : المسيو جوستاف نودين من طرف البارون هوسبرج .

وأيقن هوجى أنه لاشك قد جاء ليطلب اعتذارا عما حـــدث . وأمر الخادم بادخاله . فدخل عليـــه كهل أنيق له شعر رمادى اللون ويضع على عينيه منظارا ذهبيا وقال فى لهجـة فرنسية بعد أن اتخذ مجلسه :

ـ هل أتشرف الآن بمحادثة السيد هوجى ؟

فحنى الأخير رأسه فى أدب بينما استمر الرجل يقول :

ـ لقد جئت من عند البـــارون هوسبرج والبارون ...

وهنا قاطعه هوجى قائلا بحرارة :

ـ أرجوك ياسيدى أن تبلغ سيادته أسفى البالغ لما بدر منى .

ولكن الرجل لم يبال بالمقاطعـــة واستمر يقول :

ـ لقـــد أرسلنى البارون بتلك الرسالة اليك .

وقدم اليــــه رسالة كتب عليها : هدية العـــرس الى هوجى ولورا ! وبداخلها وجد هوجى شيكا بعشرة آلاف جنيه .

حذار من التعب الذهنى

لعل أخطر مرض جلبته الحضارة على حياة الانسان العصرى هو التعب؛ والتعب ظاهرة عامة تتناول كل كيان الانسان ، ولكن أخطرها هو التعب الذهنى ، وهو مثل الهم النفسى ، نلاحظ أنه يكثر فى المدن ويقل فى الريف . فكما أن الطموح والتطلع ومحاولة رفع مستوى الحياة كلها تزداد فى المدينة ، نجد أن القناعة والرضا النفسى أهم ما يميز حياة الريف. كذلك النشاط ، فهو كما يحتد أحيانا فى المصنع أو المكتب الى حد التوتر ، نجده يفتر ويتضاءل ، الى حد التراخى فى الريف . ويمكن القول ، بوجه عام ، ان سير عجلة الحياة فى الريف أبطأ منه فى المدينة حيث تبدو السرعة ظاهرة رئيسية ، بل «الهرولة» أحيانا بسبب زحمة الأعمال وقوة الاندفاع .

ومن أجل هذا تبدو أمام أعيننا أهمية تدبير حياتنا تدبيرا صحيا فى المدينة ، ليسير العمل المجهد سيرا رفيقا منتظما ، لا يضغط على أعصابنا المنزوفة وأعضائنا المرهقة ، وعلى



رأسها الدماغ الذى يمثل « حكومة الجسم » ودولاب الأعصاب ..

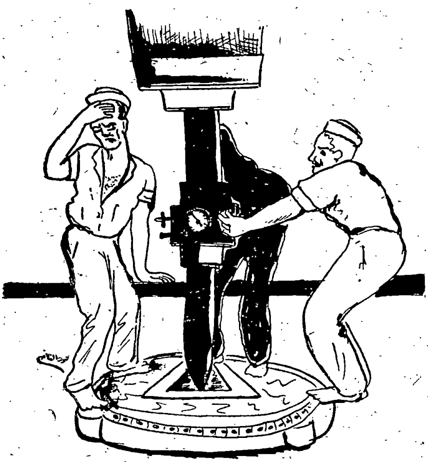
فاهمال التعب كاف مع وقت قصير للانتهاء بنا الى حد الانهيار العصبى الذى قلما ينجع فيه علاج . والتعب قد يكون ذهنيا عصبيا كما ذكرنا أو جسمانيا عضليا ؛ وهوفى هذه الحالة الثانية يترك من الأعراض المؤلمة ما يستدعى الراحة والاستجمام بالكف عن العمل . فالصانع الذى يعمل بيده عملا شاقا مضطر الى اراحة يده أو ذراعه فى فترات معينة ، وكذلك الحال فى أى جهد جسمانى عضلى آخر ..

على أن التعب الذهنى أو العصبى ليست له مثل هذه الأعراض ، بل

هناك أعراض للسأم تشبه أعراض التعب وتضلل صاحبها عن الحقيقة .

فقد يكره أحدنا بعض الأعمال أو فروعا منها فيسأم العمل فيها بعد ساعة أو أقل من ساعة ، وليس به من تعب حقيقى ولكنه السأم قد استولى على نفسه فأوهمه بالتعب ، ولذلك نجد فروقا عظيمة فى النشاط بين شخصين ، لا لأن أحدهما أصح جسما من الآخر ، بل لأن أحدهما راغب فيه مقبل عليه ، فى حين يعمل الآخر وهو كاره متبرم ، فالأول لا يتعب غير التعب الحقيقى بعد ساعات من النشاط المتزن ، فى حين يحمل الثانى على نفسه فيهبط ويتداعى ، ويحس ذلك التعب الوهمى الذى مرده الى السأم .

هذا الى أن لكل منا عاداته أو أسلوبه فى التعب ، فأحساسنا بدرجة من درجات التعب ، هذا الاحساس الذى قد يحملنا على طلب الراحة أو التسلية قد لا يعده شخص آخر داعيا الى الراحة ، والتعب الذهنى أو العصبى هو الذى يضللنا لغموض أعراضه . ويعد العلامة (ميومان) أعظم السيكولوچيين الذين درسوا التعب وأعراضه وطرق علاجه ، وهو يرى أن العلاج الأصلى للتعب هو الراحة ، ولا يصح أن نفهم الراحة



على معناها الظاهر ، بدليل أنه لا يقوم اصطناع الترفيه الذهنى أو العصبى ، بشرب فنجان من القهوة مثلا أو الاستماع الى أغنية أو التسلى بلعب الشطرنج أو الحركات الرياضية ، مقام الاستلقاء أو الانطراح على فراش مع النوم اذا كان هذا مستطاعا . ويجب أن يكون النوم هنا زائدا على القدر المعتاد فاذا كان أحدنا فى مكتبه وأحس التعب ووثق أن هذا التعب ليس ناشئا عن التبرم والسأم ، وكراهة العمل ، فان خير ما يريحه هو الكف التام عن العمل ، مع اتخاذ الجلسة المريحة التى تقارب الاستلقاء ، أو الانطراح مدة عشر دقائق على مقعد وثير مائل الظهر لينه . فاذا كان هذا المتعب قد اعتاد القيلولة فيجب أن

تزيد مدتها ، مع ملاحظة ألا تؤدى هذه الزيادة الى السمن أو التكرش ، تبعا لقلة استهلاك الطعام ، ومن ثم يحتاج المتعب الى أن ينقص من طعامه مع زيادة نومه .

ولقد ثبت بالتجارب التى قام بها المدرسون فى مدارس مختلفة أن المناوبة بين الدرس والرياضة لا تزيد النشاط الذهنى بل تنقصه ، فى حين أن الراحة التامة تجدد هذا النشاط ؛ كذلك أثبتت التجارب التى أجريت على عدد كبير من المصانع ومؤسسات العمل أن الترفيه عن طريق تناول الطعام الخفيف أو سماع الموسيقى ، أو ممارسة الألعاب المختلفة ، ومن بينها ألعاب التسلية ، لا يجدى فى تجديد نشاط العمال كما يجدى فى تجديده النوم أو الاستلقاء ، مع الكف التام عن الحركة .

وما كنا نعتقده من أن المجهود الجسمانى يجدد النشاط ويعدنا للمجهود الذهنى ليس صحيحا ، لأن الشخصية الانسانية كم لا يتجزأ ، وراحة الذهن تؤدى الى راحة الجسم ، والعكس صحيح ، كما أن تعب أحدهما يؤدى الى تعب الآخر ..

ولذلك ينبغى للمصطاف الذى ينشد الاستجمام واستعادة نشاطه بقضاء أسبوع أو شهر عند الشواطىء أن يقضى يومه الأول فى المصيف ، فى البيت ، ويكف عن جميع ألوان النشاط ، اما نائما واما مستغفيا كالنائم ، وهو سيجد بعد هذه الراحة القصيرة التى يستطيع أن يطيلها اذا أحس الحاجة الى ذلك ، أن يستمتع بالاصطياف أكثر مما لو أقبل على النشاط من اليوم الأول .

ويرى نيومان أن التعب الذهنى يتدرج فى أربع درجات يحسن بنا أن نعرف أعراضها المنذرة لكى نحتاط لها ونتوقى أخطارها .

فأول هذه الدرجات أن كمية العمل تزداد ، فى حين أن الكيفية تنقص ، أى أن مجهودنا يؤدى الى انجاز مقدار كبير من العمل ، ولكن الجودة تقل ، ولذلك تفشو الأغلاط ، فنحن هنا فى هروله بلا تدبير ..

والدرجة الثانية هى النقص فى الكمية والكيفية معا ؛ فالعمل قليل والنوع سيىء . أما الدرجة الثالثة — هذا اذا استمررنا نعمل ولم نلتفت الى الانذار ، فتتسم بهبوط ذهنى وجسمانى ؛ فنحن فى هذه الحالة ننسى الأسماء ونخطىء فى الحساب ، ونحمل الشىء بيدنا فيسقط ؛ ونتعثر فى المشى ، ونحتاج الى أن نحمل على

أنفسنا حملا عنيفا لكي نؤدى العمل الخفيف . وهنا انذار رهيب للكف عن العمل .

فاذا لم تردعنا هذه الحال ، واستمررنا نعمل ، فاننا نقع فى الدرجة الرابعة من التعب ؛ وأعراض هذه الدرجة الأخيرة هى تهيج وتقزز كأنها الحمى ، وعندئذ يحسن المتعب عمله كما وكيفا ، فالمقدار يزيد والنوع يجود ، وقد وصف (ميومان) هذه الحال بأنها « نشوة التعب » (Lust of Fatigue) والعافية المألوفة لهذه الدرجة هى التهافت أو الانهيار العصبى والذهنى ، فان المتعب قد صار مريضا ، وهو محتاج الى العناية فى السرير ، لأنه قريب عندئذ مما يسمى النيروز ، وكذلك من النورستانيا .

هذه هى الدرجات الأربع للتعب ، وأعراض كل منها واضحة يمكن لأى منا أن يعرفها فى نفسه وأن يتوقى الخطير منها اذا أحس درجتها الأولى ..

* * *

مملكة النحل

قال شوقى يصف مملكة النحل :

أليس فى مملكة النحل
لقوم تبصره ؟
ملك بناه أهله
بهمة ومجدره
لو التمست فيه بطـ
ـالِ اليدين لم تره !
تقتل أو تنفى الكسـ
ـالى فيه غير منذرة

* * *

وقال يناصر تعليم المرأة :

هذا رسول الله لم
ينقص حقوق المؤمنات
العلم كان شريعة
لنسائه المتفقهات
كانت سكينة تملأ الد
نيا وتهزأ بالرواة
بغداد دار العالمات
ومنزل المتأدبات
ودمشق تحت أمية
أم الجوارى النابغات
ورياض أندلس نميـ
ـن الهاتفات الشاعرات .

ثراء

● قالت السيدة الغنية : أظن أن الفنانين يكرهون الثراء .

فأجابها المفلس : .. ثراء الآخرين فقط ! .

الثورة الفرنسية . الخلافة الإسلامية . التمييز بين العرب والأتراك

خلاصة محاضرة ألقاها محمد زكى عبد القادر فى معهد القاهرة الثقافى

كان دور الصحافة فى المعركة ، بل المعارك ، التى نشبت بين الفرنسيين والمصريين أيام الحملة الفرنسية واضحا ؛ وأنا لا أقول ان المقاومة المصرية كانت سببا مباشرا ، أو وحيدا ، فى فشل الغزو الفرنسى ، انما هذه المقاومة كانت عندنا ، من حيث البحث التاريخى ، دليلا على أن مصر كانت تشعر بنفور طبيعى من الغزو ، أما الأسباب التى ساعدت على فشل الحملة الفرنسية على مصر ، فترجع الى جملة عوامل متشابكة ، بعضها يرجع الى الحالة الداخلية فى فرنسا وبعضها يرجع الى مسلك المسؤولين عن الحملة ذاتها فى مصر ، وبعضها الآخر يرجع الى الصراع على النفوذ فى الشرق الأوسط ؛ وكلنا لاشك يسمع الآن أحاديث كثيرة عن الشرق الأوسط ، وعن المطامع التى تتجاذبه من هذا الجانب أو ذاك ..

فمن المؤكد أن هذه المطامع قديمة وأن هذا الصراع أيضا طويل الأمد بعيد الجذور فى التاريخ ، ففى الوقت الذى كان فيه نابليون يحاول أن يثبت قدميه فى مصر ، ليجعل من مصر نقطة للوثوب على بقية بلدان الشرق الأوسط ، كانت بريطانيا تحاول من جانبها أن تعمل على فشل الغزو الفرنسى فى مصر بكل وسيلة من الوسائل .

وكلنا يعرف أيضا أن ظهور نابليون فى فرنسا كان فى ذاته عاملا مباشرا ، أو غير مباشر ، لامتداد نفوذ انجلترا ، لا فى أوربا فحسب ، بل أيضا فى الشرق ، حيث تسعى الى توسيع رقعة مستعمراتها فى افريقيا ومصر . ذلك أن انجلترا كانت تدرك أن ظهور فرنسا كدولة قوية لا يؤدى فقط الى السيطرة على أوربا ، ولكن يمهد لها السبيل للقيام بمنافسة خطيرة لبريطانيا الى حد تعويق سعيها الى ضم أكثر ما تستطيع من المستعمرات والممتلكات .

تعرض الأسطول البريطانى للأسطول الفرنسى فى معركة مشهورة سميت معركة « أبو قير » عند الاسكندرية ، منى فيها الأسطول الفرنسى بهزيمة بالغة ، فكانت هذه الهزيمة بمثابة قطع

لكل طرق المواصلات أمام الحملة الفرنسية الموجودة فى مصر ، وبالتالى قطع لوسائل تموينها ، والفصل بينها وبين قاعدتها فى شرق أيطاليا ، اذ كان نابليون قد استولى على جزء من ايطاليا . وأدت هذه الهزيمة البحرية الى نتائج عديدة منها :

١ ــ ضيق الجنود الفرنسيين أنفسهم بحياتهم فى مصر ، وشعورهم بأنهم فصلوا نهائيا عن أرض الوطن (فرنسا) ، وأن الامدادات المرتقب وصولها لتوسيع رقعة الغزو ، والاستيلاء على بلاد الشرق الأوسط الأخرى ، أصبحت مجرد حلم بعيد التحقيق ، وانتهى الأمر بأن اضطر نابليون نفسه الى العودة الى بلاده لكى يثبت مركزه داخليا ، ويحقق أحلامه هو فى السيطرة على فرنسا ؛ ومن ثم ليقوى فيها نفوذه بفضل ما حققه من فتوحات !

اضطر نابليون اذن الى أن يعود من افريقية ، وترك قواده لمتابعة البقاء فى مصر ، عساهم يستطيعون بما بقى لهم من امكانيات محدودة المحافظة على ما كسبه هو فى مصر !

ولكن عودة نابليون فجأة الى فرنسا ، دون استشارة قواده ، كانت ضربة قاصمة لكيان الحملة ، وكانت سببا من أهم أسباب فشلها عسكريا ، ومن ثم لكيان الحملة ، وكانت سببا من الأسباب التى حالت بين الحملة وبين تحقيق ما هدفت اليه فى برنامجها الرئيسى من الاستمرار فى غزو بلاد الشرق الأوسط تباعا وضمها الى امبراطورية فرنسا .. ونعود الآن الى المقاومة المصرية للحملة ، لنتساءل: ما الذى دفع المصريين الى تدبير هذه المقاومة للغزاة الفرنسيين ؟ هل هو الشعور الوطنى أو الشعور القومى الذى لعب الدور الأكبر فى المقاومة ، أم هو خليط من شعور غامض ، وطنى أو قومى ، لم يتبلور تماما ، وان امتزج بشعور دينى كان هو فى ذاته ــ أى الشعور الدينى ــ العامل الأساسى فى هذه المقاومة ؟

ان تحقيق هذه النقطة مهم الى حد كبير ، فكل الشعوب فى كل العصور دافعت عن أوطانها ، وقد فسر هذا دائما بأنه ممارسة لواجب الدفاع عن الوطن ــ هذا هو المفهوم الظاهرى ، غير أن وراءه مفهوما أعمق تفسيره أن الوطن نفسه كان موضوع تطور طويل استغرق أجيالا متعاقبة ، بل ان فكرة الوطن ذاتها مرت هى الأخرى بهذه الأطوار الى أن وصلت الى المعنى الذى

تتمثله الأذهان فور اللحظة ، حين نقول ان هذا البلد نحبه لأنه وطننا .

فمن أقدم العصور كان الانسان يدافع أولا عن عائلته ثم عن القبيلة التى ينتمى اليها ، ثم عن مجموعة القبائل التى منهـا قبيلته ، ثم عن الأمة أو الشعب الذى ينتمى اليه . وقبل هذا ظل الانسـان يدافع عن الدين الذى يدين به .

ولم تعرف القوميات فى معنـاها الاصطلاحى الحديث ، من حيث أن مجموعة من الناس يقيمون فى بلد من البلاد ، وتتفق لهم سمات مميزة ، تجمعهم على حب هذا الوطن ومفاداته. ان هذا المعنى لم يظهر تماما الا فى القرن التاسـع عشر الذى سـمى بعصر القوميات ، اذ أخذت القومية فى هذا القرن مفهومها الحـديث الذي وان تطور بعض الشىء خلال ذلك العصر الا أن سماته الأساسية ظلت كما هى، لم يمسها تغيير يبدل من طبيعتها .

وقبل القـرن التاسع عشر كانت الحروب والثورات ، والانفعالات ، التى تمر بالشعوب ، ترجـع الى عواطف واحساسات هى أكثر ما تكون تعلقا بالدين ؛ أكثر من اتصـالها بالوطن نفسـه .

ونحن نعرف أن الأديان السماوية الكبرى التى نزلت على فترات متعاقبة، وان كانت فترات طويلة ، أدت كل منها الى سلسـلة من الحـروب والفتوحات وكان واضحا أن هـذه الحروب والفتوحات لم تكن منبعثة عن فكرة وطنية ، انمـا كان مبعثها فكرة دينية أكثر منها فكرة وطنية .

فاليهودية مثلا ، وهى أول الأديان السماوية ، لم تقم على جنس ووطن وأرض وبلاد ، وانما قامت على الدين قبل كل شىء ، أينما كان أتبـاعه وحيثما انبثوا فى الأرض ؛ فاليهـود لا تجمع بينهم الأرض التى يعيشون عليها ، وانما يجمع بينهم الدين الذى اعتنقوه والمذهب الذى يدينون به .

والمسيحية حينما جاءت ، أحدثت الشىء نفسه مع فارق بسيط هو أن اليهودية جاءت فى زعم أصحابها لتنصب بمبادئها وتعاليمها على قوم بذاتهم ، أو بالأحرى على دم بذاته وعلى نسل بذاته ؛ ولذلك لم تنجح اليهودية حين تزمتت هذا التزمت ، على حين نجحت المسيحية ونجح الاسلام فيما انصرفا اليه من نشر الدعوة ، ومحاولة ادخال الناس جميعا ، على اختلاف أجناسهم ولغاتهم ، فى الدين الجديد .

كانت اليهودية تعتبر أن هـذه الدعوة انما نزلت الى بنى اسرائيل

وجدهم لا يشاركهم فيها مشارك من الأجناس والشعوب الأخرى ؛ لذلك لم تسلك اليهودية المسلك الذى سلكته المسيحية والاسلام من نشر الدعوة ، ومحاولة بث الدين الجديد بين الأقوام التى لا تعرفه .

من أجل هذا اقترنت المسيحية فيما بعد بحروب عديدة ، وعرف تاريخ أوروبا ، منذ وجدت المسيحية الى قرب نهاية القرن الثامن عشر ، أو منتصف القرن التاسع عشر ، سلسلة من الحروب الكثيرة التى نشبت فى عنف بين أنصار المذاهب المسيحية المختلفة ؛ وكانت هذه الحروب تدوم أعواما ومنها الحروب الثلاثينية التى دامت ثلاثين عاما .

كذلك حين جاء الاسلام بذل المحاربون دماءهم من أجل نشر المعتقد الجديد بين الأمم ، فهم لم يبذلوا هذه الدماء من أجل الوطن ولا من أجل رقعة بذاتها من الأرض ولا من أجل قطعة معينة عاشوا عليها فترة من الزمن نمت وتأصلت لهم فيها ذكريات ، وتكون لهم بها ماض عاشوا فيه ، وانما بذلوها لأن الحرب كانت قائمة على فكرة دينية ، ولذلك كان المسيحى يتآخى مع زميله من أقصى الأرض بينما يتقاتل المسيحى من مذهب معين مع زميله المسيحى من مذهب آخر ، حتى وان قاموا على أرض واحدة أو بلد واحد . هذا الأمر نفسه حصل كذلك بالنسبة للاسلام .

فحينما ظهر الاسلام جاء بمثل جديدة ، وأفكار جديدة ، ومعتقدات جديدة ، آمن بها عدد من الناس ، وقد خرج هؤلاء المؤمنون من جزيرة جرداء قاحلة ، وبدأوا ينشرون دينهم ؛ وقد حاربوا من أجل نشر هذا الدين حتى بلغوا فى مدى يقل عن مائة عام الى أقصى الشمال الافريقى ، ثم اتجهوا الى غزو أوربا ، فاستولوا على الأندلس .

ولعل الجدير بالملاحظة فى هذه الغزوات هو أن الجيوش التى كانت تحارب لم تكن ذات جنسية أو وطنية معينة ، وانما كانت ذات معتقد دينى واحد ، هو أن من يحارب ومن يسفك دمه ويضحى بروحه انما يفعل ذلك من أجل الدين وليس من أجل الوطن .

ولذلك كانت الخلافة الاسلامية تجمع ، حيثما أقيمت ، عددا كبيرا من البلاد لا تربطها جنسية معينة . ولكن يربطها دين واحد ؛ وكان الولاء للخليفة القائم ولاء دينيا بحتا ، لأن الاسلام كان دينا ودنيا ؛ فهو دين جمع فى

وقت واحـــد بين النواحى الدينية والأمور المتعلقة بالعبادات .

وأحب أن ألفت النظر الى أن الدين المسيحى لم يصـــل الأمور الدينية بالأمور الدنيوية ، وكان المسيح يقول مـرارا أنه لـم يأت ليكون صاحب سلطان انما جاء ليهدى النـــاس الى عبادة الله .

وعلى الرغم من ذلك فان المسيحية، فيما تلا من الأعوام ، اقتحمت نطاق السلطة الزمنية وامتزجت بهـــا ، وأصبح لها نفوذ دنيوى لا أساس له من حيث جوهر الدين ، وهو نفوذ مرده الى استفحال نفوذ رجال الدين وعمق الاعتقاد الدينى فى نفوس الناس مما جعل لرجال الدين سلطة دنيوية أيضـــا .

والبـــابوية التى قامت فى روما ، والتى قامت فى القسطنطينية بعـــد ذلك ، كان لها نفوذ دنيوى الى جانب نفوذها الدينى .

والحادثة المشهورة فى التاريخ والتى ذهب فيها هنرى الرابع ملك بريطانيا، وجثا على ركبتيه يومين فى الثلج حتى يأذن له البابا فى المثـول بين يديه ، معروفه ، وهى تدل على مدى السلطة التى كانت تتمتع بها البابوية فى تلك الأيام .

ولقد مرت هذه السلطة الزمنية التى كان يتمتع بها البابا فى مراحل كثيرة ؛ ونتيجة لنمو القوميات ونمو الفكرة الوطنية ، أخذت سلطة البابا الزمنية تتدهور ، وهو نفس الشئ الذى حدث للخلافة الاسلامية تماما ، عندما كان الدين هو الغالب ؛ فعندما بدأت القومية تظهر وتبدو واضحة ، بدأ السلطان الدينى يضمحل حينئذ، مخليا مكانه لسلطان القوميات الذى جعل يزداد ويقوى .

وقد اســــتمرت البابوية تمارس السلطة الزمنية والسلطة الدينيةمعا، الى أن ظهر موسولينى فى أوائل هذا القرن ، وأراد أن يمنع البابا من أن يكون له ملك وسلطان .

لقد كانت للبابا دولة وكان سلطانه غير محدود ، بمعنى أن الدولة كلها كانت لا تستطيع أن تعصى للبابا أمرا حتى لو خرج عن نطاق الأمور الدينية.

ولكن لما تحققت الوحدات القومية، بدأت الدول تتخذ طريقا آخر ، وبدأ الكثير منها يفكر فى الفصل بين الدين والدولة ، وان كان أول صوت ارتفع بذلك هو الذى ارتفع فى أثناء الثورة الفرنسية ، أى فى نهاية القرن الثامن عشر ، عنـــدما طالب الثـــوار من

اليعاقبة وغيرهم بفصل الدين عن الدولة وعندما قيل ان الدين أمر يتعلق بالانسان وربه ولا دخل للدولة فيه ، كانت هذه الصيحة أول صدمة لسلطان البابا فى روما ، وقد ظلت تدوى وتستفيض أصداؤها حتى حدثت بعد ذلك تطورات أدت الى أن كثيرا من الدول فى أوربا فصلت الدين عن الدولة .

ولما جاء موسولينى كما قدمنا أراد أن يمنع البابا من ممارسة سلطانه الزمنى ، وانتهى الحال بعد صراع طويل بين البابا وموسولينى بالاتفاق على أن يمارس البابا سلطته على دويلة رمزية تتألف من بعض أجزاء من روما ، هى المركز البابوى وكنيسة القديس بطرس ، وأصبحت هذه الأجزاء الصغيرة تؤلف حاليا دولة الفاتيكان .

كذلك حدث نفس التطور بالنسبة للخلافة الاسلامية ، فلقد عاشت قرونا طويلة ، وكان الخليفة فى وقت من الأوقات صاحب الأمر والنهى فى رقعة من الأرض تشمل عددا كبيرا من الشعوب التى تنتمى الى جنسيات مختلفة وكان الولاء الذى يربطها بالخليفة هو الولاء الدينى .

ومصر كما تعلمون فتحت فى أوائل قيام الدين الاسلامى وظلت منذ ذلك الحين قطرا تابعا للخلافة الاسلامية أينما وجدت ؛ وفى مثل هذا النظام لا تفهم القومية ، لأن مفهوم هذا النظام — نظام الخلافة — دينى وقائم على فكرة هى أبعد ما تكون عن فكرة القومية ؛ ولذلك كانت الدول المنضمة الى الخلافة ، لا تتقاتل فيما بينها باعتبار أن هذا مصرى وهذا سورى مثلا ، وانما كان يوجد خليفة ومؤمنون منبثون فى رقعة كبيرة من الأرض يأتمرون بأمر الخليفة ويطيعونه لا عن رهبة ولا عن قوة ، ولكن عن ايمان بالدين .

فلما جاء الفرنسيون الى مصر فى العقد الأخير من القرن الثامن عشر كان مجيئهم اعتداء على الخلافة الاسلامية وعلى البلاد الاسلامية من قوم يخالفونها فى الدين ، لذلك اشتدت المقاومة المصرية للغزاة بحافز من هذا الشعور الدينى أكثر من أى دافع آخر ، بدليل أن مصر حينما كانت تغزى بدولة من الدول الاسلامية كان كل ما يحدث هو أن تحل خلافة اسلامية محل الأولى وينتهى الأمر عند هذا الحد .

ولما زالت الدولة العثمانية ، بدأت

القـــومية والوطنية تظهران وبدأت الشعوب العربية تفكر تفكيرا جديدا .

وبدأت الفـكرة الوطنيـــة فى مصر ســــــنة ١٩١٩ . وطالب المصريون بالاستقلال التام ، باعتبارهم شعبا له وحدته الاقليمية والقومية ، أى شعبا مستقلا عن البلاد العربية الأخرى ، كما طالبوا ، تبعا لذلك بجيش منفصل عن بقية هذه البلاد العربية .

وقد حصل نفس الشيء فى سوريا ولبنان ، وغيرهما ، اذ طالبت هــذه البلدان بالاستقلال ، وبدأت الحركات الوطنيـــة تكثر فى هـــذه المنطقـــة وتتـــوالى لأن مصر فى الفـــترة السابقة ظلت متصـــلة بالثقـــافة الغربية ، وهكذا بدأت الفكرة القومية تتبلور ، وبدأت القوميـــات تظهر ، فيقال مثلا انمصر للمصريين . وسوريا للسوريين الخ . . ثم رؤى أخيرا أن استقلال كل دولة عربية عن شقيقتها العربية لا يكفى فى ذاته ، الأمر الذى حدا بنا الى انشاء الجامعة العربية . وحين بدأ التفكير فى هذه الجامعة كان كل بلد حريصا أيمـا الحـرص على استقلاله ، وحصلت مفاوضات قبل التوقيع على الميثـــاق ، وكان أكثر البلاد خوفا على استقلالها هى لبنان ، ولذلك نص فى ديباجة الميثاق على أن الأندماج لا يؤثر على كل دولة ولا على حقها الكامل فى ممارسة شـــئونها الخاصة .

حين أنشئت الجامعة العربية اذن لم يكن لدولة حق التدخل فى شئون الدول الأخرى ، وكان الانجليز أنفسهم مؤيدين لهذه الفكرة ، وان كانوا يأملون فى تحقيق هــــدف آخر هو أن تظل الجامعة العربية ، بعد اخراجها الى حيز الوجود ، تحت اشرافهم . والذى حدث أن الجامعة العربية لم تسر تحت سلطان الانجليز ، بل سارت فى الطريق الذى تريده الشعوب العربية ، وكانت فعلا مع رأى الشعوب أكثر منها مع رأى الحكومات ، ومـن ثم أصبحت رابطة للتعاون بين الدول العربية وان لم يكن لها قوة تنفيذية بالمعنى المفهوم. وحين تم ميثاق الضمان الجماعى فى ســنة ١٩٤٩ كان الانجليز مؤيدين لفكرة سياسية معينـــة مؤداها أنه حيثما تكون الدول العربية فى دفاع مشترك ففى الاستطاعة ضم الميثاق الذى يربط بينها الى أحلاف أخرى حلف شمال الأطلنطى أو غيره ، وكان هذا التقرير فاسدا من أساسه كما أثبتت الحوادث فيما بعد .

● ليس مما يؤدى الى سعادة الزوجين أن يتبعا سياسة النعامة فيما يتعلق بأخطر وظيفة أرادتها الطبيعة للمرأة والرجل .

هل توجد نساء باردات جنسيا ؟

دور المرأة إيجابي كالرجل

بقلم دكتور ادوارد دينجروف فى مجلة سيكولوجى

ان الشاب الذى سنسميه هنا اسما مستعارا ، وهو « چيم » ، كان حديث عهد بالزواج ، وكان يشعر بالاضطراب والحيرة بسبب ما كان يحسه من اخفاق مؤلم فى أخص وظائفه كزوج ، وعجزه عن اظهار رجولته أمام زوجته الجميلة الصغيرة ، وكان يحبها حب عبادة ويتوق الى اسعادها وتوفير الهناء الزوجى لها بكل ما يملك .. ولكن المال وحده ، مع الأسف ، لم يكن كافيا ، ولن يكون بطبيعة الحال ، لتحقيق هذه السعادة على طول الخط!

اذن لا مفر من أن يكون زواج « چيم » وسيلة الى اسعاد زوجته ؛ وأعنى بالزواج تلك العلاقة الجنسية التى تربط جسدين شابين مشبوبى العواطف ، برباط وثيق . ومع ذلك ، فقد مرت الأيام ولم يستطع هذا الزواج أن يكون مصدر رضا للزوجين، وأن يحقق الأرواء الجنسى لكلا الطرفين، وأصبح الأمر مهددا باستهداف أحدهما ، أو كلاهما ، لبعض العقد النفسية التى قد تستعصى، لو أهملت، على العلاج ..

ماذا يفعل چيم ؟



لم يكن أمامه سوى سبيل واحد، هو سبيل التشخيص الطبى ، ليضع الطب يده على السبب الأصيل فى هذه التعاسة المبكرة ، ويصف العلاج المجدى قبل فوات الأوان ..

وكان چيم يعلم أن العلاقة الجنسية فى كل زواج سعيد ، يجب أن تفضى الى « ارضاء » كلا الزوجين ارضاء نفسيا وجسمانيا تاما ، وهو ما يجب أن تحققه العلاقة الجنسية بينهما ، كما كان يعلم أن هذا أمر يتطلب بعض الوقت ، وأنه من غير المعقول أن يتحقق هذا الأرضاء من أول وهلة ، وعقب ليلة الزفاف مباشرة ، اذ أن عددا من

العوامل يتدخل فى هذا الأمر ليس أقلها شأنا قلة تجربة الزوجين ، ومدى استعداده النفسي ــ هذا من ناحية ، كما أن هناك حقيقة تقف حجر عثرة أمام الزوجين ، فى أغلب الأحوال ، وهى أن المرأة ــ من ناحية أخرى ــ أبطأ عادة من الرجل فى بلوغ قمة « الأورجازم » ، وبالتالى فى بلوغ نقطة الارتواء ، فچيم اذن ، كان يعلم مدى مسؤولية الزوج ، وتبعته الثقيلة كشريك له دوره الايجابى فى هذه العملية ..

وكان قد انقضى على زواجه حين ذهب الى احدى العيادات ، عامان، ظل خلالهما صبورا أريبا ، لبقا فى معاملته لزوجته من الناحية الجنسية ما استطاع ، ولكن الأمر مع ذلك خرج من يده وفاق كل قدرة له وكل علم سابق بالموضوع ، وأحس فى قرارة نفسه بمرارة قاتلة من جراء عجزه التام عن اشعار زوجته بالشبع الجنسى عقب كل اتصال يتم بينهما ، حتى ليقض مضجعه أن يرى أمارات الاشمئزاز والنفور بادية على ملامح زوجته المسكينة ، حين ينتهى الأمر بينهما هذه النهاية المؤلمة ..

لقد أحس أن هذا العجز نفسه ، عجز زوجته عن بلوغ حد الأورجازم ، ينغص عليه هو نفسه هناءته الزوجية، ومتعته الجنسية بهذا الجسد الجميل الدافىء الذى يشاركه مضجع الزوجية ، دون أن يستمتع مع ذلك بسحر هذا المضجع ، وزاد تنغيصه حدة يقينه بأنه وحده السبب فى



تعاستها التى تحاول عبثا أن تكتمها عنه ، ولكنها لا تلبث أن تعجز ، اذ سرعان ما تهتاج أعصابها وتنفجر ساخطة باكية تختلق أسباب الخصام والشجار اختلاقا ، ولو على أتفه الأمور وأسخفها !

وهكذا أيقن « چيم » المسكين أنه اذا لم يسرع الى عمل شىء يوقف به استمرار هذه المأساة فى التعقد ، فان صرح الزوجية سينهار من أساسه ، ويفقد معه زوجته التى يحبها الى حد العبادة .

وكشف الفحص الطبى النفسى على الزوجة عن الحقائق الآتية .. انها كانت قبيل زفافها الى زوجها مهمومة الى أقصى حد بالحياة التى تبدو جديدة فى عينيها ، تسائل نفسها ما الذى سيكون ؟ هل ستفلح كزوجة ؟ هل ستسعد زوجها وتضمن استمرار الحياة السعيدة فى بيتها ؟ كما كشف الفحص عن حقيقة أخرى هامة ، هى أنها غير عاجزة عن الاستجابة الجنسية، كما يتوهم زوجها « چيم » ، بل الأمر على النقيض من ذلك ، أنها ذات حيوية جنسية مذهلة ، ولا تنفر من المضاجعة بطبيعتها ، فالرغبة الجنسية عندها

طبيعية جدا ، ولكن المشكلة مردها الى عامل آخر كشف عنه الفحص ؛ فلقد اعترفت للطبيب وهى تبكى ، بعد أن لم يسفر الفحص الدقيق عن شىء ، بأنها هى التى تتعمد ، بجهد نفسى وعقلى وجسمانى خارق ، الحيلولة بينها وبين بلوغ مرحلة الأورجازم ، وهى هى التى تقسو على نفسها قسوة غير طبيعية لتعطل مرحلة الأرواء هذه، ظنا منها أن بلوغ هـــذه المرحلة ، باعتبارها النهاية الطبيعية للعمليــة الجنسية ، مفض لا محالة الى الحمل، وهى تكره الحمل كراهية شديدة ، فهو أن لم يتلف جمالها قد يكون فيه هلاكها (؟!) هذا الى أنها تهوى الحياة المترفة التى يحققها لها دخل زوجها ، ولكنها « تتوهم » أن مجىء ضيف جديد على الأسرة ، وما يتطلبه من زيادة النفقات لرعايته ، قد يضطرها الى خفـض نفقات ثيابهـــا وزينتها ونزهاتها !!

ولندع الآن هذه التعلات الصبيانية التى تعد ظاهرة عامة مع الأسف بين أغلبية نساء العصر ، ونعالج المشكلة فى جوهرها ، وهى مشكلة الوهم بأن بلوغ المرأة مرحلة الأورجازم قد يفضى الى الحمل ..

والواقــع الذى يقطـع به الطب الحديث أن الظن بأن الأورجازم يعين المرأة على الحمل ، أو بمعنى آخر أن تعمدها اصطناع البرود الجنسى مع زوجها ، وتحملها فى سبيل ذلك الكثير من المشاق النفسية والبدنية الى حد تعريض جهازها العصبى للاضطراب والانهيار ، يجعلها غير صالحة للحمل، هو احدى الأخطاء الشائعة بين كثيرات من نساء اليوم اللائى يحرمن أنفسهن فى اصرار أبله من مباهج الزوجية ، فى أخص جانب من جوانبها ، كى يبقين بنجوة من الحمل ! ..

ان لعدم الحمل أســـبابا أخرى عديدة ، ليس من بينها حرص المرأة على عدم بلوغ مرحلة الأورجازم . هذا الى أن لمثل هــذه النظرية الخاطئة اضرارا شنيعة لا تسلم من جرائرها عقلية المرأة أو نفســيتها ، أو حتى جســـدها الذى يتأثر بدوره بكل ما يعرض لحالتها العقلية والنفسية من اهتزاز واضطراب .

فالمرأة التى تعزو عدم اخصابها الى برودها الجنسى ، الطبيعى أو المصطنع، ستظل ضـــالة عن معـــرفة السبب الحقيقى لعدم انجابها ذرية ، هذا الى تعريضها أعضاءها التناسلية ، وبالتالى جهازها العصبى لأضرار وخيمة قد

يعجز الطب عن علاجها اذا ما استفحلت ..

على أن فريقا من النساء الأخريات اللائى لا يعتقدن أن استشعار « الأورجازم » يحول دون الحمل ، يعتقدن من ناحية أخرى أن استخدام الرجل لموانع الحمل هو المسؤول الأول عن برودة المزاج الجنسى عندهن، ويذهبن الى أن استخدام الزوج للغلاف الجلدى الرقيق يؤدى الى تبليد الأحساس الجنسى عندهن ، هذا الاحساس المفروض أن يستمتعن به استمتاعا طبيعيا خلال فترة المضاجعة ؛ على أننا لو سلمنا بصحة هذه النظرية ، لعدنا الى التساؤل : لماذا يكون هذا الغلاف الجلدى المسؤول وحده عن تبليد الحاسة الجنسية عند المرأة ، ولا تشارك وسائل منع الحمل الأخرى فى هذه المسؤولية ؟!

الواقع أن الاعتقاد بأن استخدام وسائل منع الحمل قد يكون سببا فى البرود الجنسى عن المرأة ، هو اعتقاد لا أساس له من الصحة أيضا ؛ فعندى أن تنحية المرأة من ذهنها وهم الخوف من الحمل ، كثيرا ما يجعل لأداة منع الحمل التى تفضلها ، ولو كانت عجلة المطاط نفسها ، قدرة على زيادة الحساسية الجنسية عند المرأة ، فيمكنها من أن تستجيب لزوجها استجابة جنسية كاملة وتشعر بالارتواء كما لو لم يكن هناك أداة قد استخدمت خلال المضاجعة لمنع احتمالات الحمل !

وهناك فريق ثالث من النساء يعتقد أن انجاب الذرية قد يشفيهن من داء البرود الجنسى الذى حول حياتهن الى مأساة دونها كل مأساة.. فقد اعترف لى عدد من الزوجات بأنهن بدأن يشعرن بالأرتواء الجنسى التام ، الذى يبلغ بهن أقصى حالات اللذة ، عقب أن أنجبن طفلهن الأول ، وهن يعزين هذا الأمر الى احتمال حدوث بعض التغير البيولوچى أو السيكولوچى لهن ؛ ولكننى أقول لهذا الفريق من النساء ، أن الأمر لا يخرج عن حد الوهم الكبير ، فالولادة نفسها ولو بعد فترة من العقم ، لا دخل لها فى هذا الأمر ..

انني حين أنفى علاقة السببية بين حدوث الولادة والتخلص من البرود الجنسى عند المرأة ، يتمثل فى ذهنى حادث احدى السيدات اللاتى كنت أعالجهن بعيادتى ؛ فان هذه السيدة لم تتخلص ــ عقب ولادتها لطفلتها الأولى ــ من برودها الجنسى ، مما حملها على أن تقسو فى معاملة طفلتها

قسوة شاذة ، فقد كانت هذه الطفلة المسكينة فى نظرها رمزا لخيبة « الأم » وفشلها فى تحقيق سعادتها الزوجية من الناحية الجنسية ، ومن هنا بدأ اهمالها البليغ فى رعاية الطفلة والعناية بتربيتها ، مما جعلنى أوقن — كطبيب وسيكولوجى — أن الأطفال الواجب انجابهم واخراجهم الى الوجود هم وحدهم الذين يكونون ثمرة حب حقيقى بين الزوجين ، كى ينشأوا نشأة سليمة ، خالية من الانحرافات والعقد ..

ويغلب أن تلتبس فى الأذهان مشكلة البرود الجنسى بمشكلة حب الجماع والأكثار منه ؛ وعندى أن الجماع متى تم برغبة الزوجين كليهما ، واستطاع أن يحقق لهما الأرواء الجنسى ، ولو حدث يوما بعد يوم ، لا يعد من قبيل الافراط فى ممارسة أمر ضار بالجسم ، بل قد يؤدى الى الترفيه الجسمانى والمعنوى ، وهو أمر لازم للتخفيف من ضغط ظروف الحضارة ومعيشتها اليومية المعقدة على كلا الزوجين . ومع ذلك فان الأمر هنا نسبى ، ويختلف باختلاف ظروف كل زواج على حدة ، فما قد يكون عند زوجين امرا طبيعيا لا ضرر منه ، يكون عند زوجين آخرين أمرا شاذا ينطوى على ضرر أكيد لهما ..

ان العامل الوحيد الذى له حكمه فى هذا الأمر ، هو مدى قدرة الزوجين معا على الاستجابة لدواعى الالتقاء الجسدى استجابة طبيعية .

ومن دواعى العجب حقا ، أن ضحايا المرض المسمى « جنون الاتصال » ، وهم الذين يفرطون فى الاتصال الجنسى ، سواء أكانوا من الرجال أو النساء ، هم من ضحايا مرض البرود الجنسى ، فمحاولة الوصال المتكرر ليس فى تفسيره السيكولوجى السليم — الا من قبيل الاستجابة اللاارادية عند هؤلاء لنزعة التعويض ، فقد يحسب أكثرهم أن فى تكرار المجامعة ما يحقق لهم الأثارة الجنسية كاملة ، وبالتالى مرحلة الأورجازم !

ومع ذلك فأن هذا الافراط فى الاتصال الجنسى لا يؤدى فى نهاية الأمر الى الأرواء ، ومع ذلك فالمرأة التى تستشعر « الأورجازم » خلال المضاجعة لا يمكن أن تعد من المصابات بالبرود ، ولا من ضحايا مرض الأفراط فى الاتصال الجنسى ، أيا كان عدد المرات التى تمارس فيها مع الطرف الآخر هذا الاتصال .

ومن الأوهام الشائعة أيضا عن اسباب البرود الجنسى ، **الاعتقاد بأن**

عدم حب المرأة لمن يضاجعها عامل هام فى هذا البرود ، ولكن الواقع العلمى ينفى هذا الوهم نفيا باتا ؛ فأسباب البرود الجنسى كثيرة ، ومتداخلة ، ومعقدة ؛ وكم من سيدات يعشقن أزواجهن الى حد العبادة ، ويتقن الى وصالهم وصالا جنسيا ، ولو لمجرد الاستمتاع بتلاحم الجسدين معا وامتزاج الأنفاس وتبادل الهمسات والمداعبات ، ومع ذلك فان النهاية بالنسبة للمرأة التى لا تستطيع رغم ذلك المشاركة الطبيعية فى مراحل العملية ، هى فى الواقع مأساة ، فان كل نصيبها هو المجهود البدنى العنيف على غير طائل ! ان أمثال هؤلاء السيدات فى حاجة ماسة الى مساعدتهن على التغلب تدريجيا ، وفى أناة وهوادة وصبر ، على هذه العقدة ، بدلا من أن يستنكر منهن الزوج موقفا لا دخل لأرادتهن فيه ، فيكون هذا الغضب والاستنكار الأحمق من جانبه سببا فى تعقيد الأمر أكثر مما كان عليه ..

ولعل من أخطر الأوهام الشائعة ، المتصلة بمشكلة البرود الجنسى ، ذلك الوهم الرومانتيكى بأن المرأة اذا وفقت الى « فارس الأحلام » ، أى الى الفتى المثالى الجمال شكلا وبدنا ، فأنها ستحس بين أحضانه الشيقة ، مهما يكن لديها من برود ، لونا عميقا من اللذة يبلغ بها حالة الأورجازم لا محالة!

والشكوى الشائعة التى تنهال علينا دائما نحن الأطباء من الأزواج هى :

ماذا أفعل ؟ اننى أعيش حقا فى مأساة .. ان زوجتى تحيا فى ظل جوع جنسى مروع ! انها لاتبلغ أبدا معى حد « الأورجازم » . ترى هل أنا السبب فى هذه المأساة ؟ ! .

ويكمل هذه الشكوى لون آخر من الوهم ، هو شيوع القول بأنه لا توجد امرأة باردة جنسيا ، ولكن يوجد رجال أغرار غير ذوى تجربة فى العملية الجنسية ..

والحقيقة أن أكثر الرجال لا دخل له فى هذه المأساة ، ولكن فريقا من الأزواج لا يمكن مع ذلك أن ننكر قلة تجربته فى هذا الميدان ، فهو يقتحم ميدان الزواج دون أن تكون لديه أية فكرة سابقة عن الصورة التشريحية لجهاز المرأة التناسلى ، ولا أى تجربة عن طرق الاتصال ومراحله التى يجب أن تبدأ أولا بالمداعبة والاثارة حتى تنتهى بالأورجازم ..

ومن خلاصة تجاربى فى هذا النطاق الواسع من الحالات المرضية المختلفة ، المتصلة بهذا الموضوع ، أستطيع أن

أقول أن المرأة تتحمل بدورها قدرا كبيرا من المسؤولية فى هذا البرود ؛ فهى تظن أنها ذات دور سلبى محض فى الاتصال الجنسى ، وهى فى هذا الظن ضحية التربية التقليدية الخاطئة التى غرستها مثل وقيم العصر الفكتورى حين سادت المجتمعات الأوروبيـــة فضائل الرياء والحياء الكاذب .. ان المرأة فى رأيى ذات دور ايجابى لا يقل عن دور الرجل ، وهى يجب أن تعرف أن الحياء الكاذب داخل غرفة الزوجية المقفلة ، شىء سخيف لا معنى له .. انها يجب أن تعاون زوجها معـاونة حارة وحيـــة . عليها أن تستجيب سيكولوچيا لدواعى الأثارة حتى تتهيأ الغدد الجنسية الثانوية عندها لتلعب الدور البيولوچى الموكول اليها ؛ وهنا تلعب الأثارة والمداعبة أهم دور وأخطره عند هذا الصنف من النســاء المقول بأنهن ضحايا البرود الجنسى . يجب على المرأة أن تخلى ذهنها تماما من كل الرواسب والأفـكار الوهميـــة التى تغلغلت مع الأيام فى عقلها الباطن بسبب طراز التربية الذى تلقته ، أو بسبب الوهم كذبا بأن الحيـــاء ، وهى بين أحضان زوجها ، « أمر واجب » ؟!

يجب أن تؤمن بأن مباهج الجنس ولذائذه ليست وقفا على زوجها بل هى شركة عادلة بينهما . يجب أن يبدءا معا ، ثقافة جديدة مجدية فى هذا الميدان ، وما أكثر الكتب العلمية النظيفة ، المبسطة ، التى تمدهما اليوم بالمعلومات الصحيحة النافعة ، فامرأة اليوم أسعد حالا وحظا من أختها التى عاشت فى ظل عصر الجمود والتزمت قبل خمسين أو ستين عاما ..

* * *

ومن الحالات التى تكشفت لى خلال مهنتى كطبيب ، وكانت تطوى سببا أو آخر من أسباب البرود الجنسى عند المرأة ، افراط بعض النساء فى الترفيه الجنسى عن أنفسهن بطريقة شاذة ، حـين كن فتيات ؛ ذلك أن ممارسة الفتاة للعادة السرية عن طريق مداعبتها المستمرة لمنطقة البظر ، حتى تبلغ مرحـــلة الأورجــازم وتحس بالارتواء ، يؤدى مع الأيام الى نتيجة عكسية تمـاما ، اذ يركز منطقـــة الاحساس الشهوانى فى البظر وحده ، فلا تحس بعد الزواج ، خلال الاتصال ، بأى لذة ، اذ أن منطقة المهبل تكون عديمة الأحساس تقريبا ، بما فى ذلك الشفران الغليظان والشفران الصغيران..

مثل هـؤلاء النساء يحتجن الى تجربة جديدة ، شاقة ، والى تمرس دقيق بالأســلوب الطبيعى للأرواء

الجنسى حتى يتحـــول الاحســـاس الشهوى تدريجيا الى منطقة المهبل لتشترك مع البظر فى تحقيق مرحلة الأورجازم . وفى مثل هــذه الحالات الشاذة يكون على الزوج ، بأرشـــاد الطبيب الأخصائى ، أن يبذل جهــدا خاصا فى دور التحضير والتهيئة (أى مرحلة المداعبة) والا اضطر هذا الطراز من النسوة ، عقب الاتصـــال الذى لا يحقق لهن الأرواء ، أن يلتمســن الأرواء عن الطريق الذى اعتــدنه ، ووقع الزوج فى مأساة الشعور بأن زوجته ذات طبيعة جنسية باردة !

كذلك من الفتيات من تعمهن الرهبة والفزع حين يصلن مرحـلة البلوغ ويشعرن بالحيض لأول مرة ؛ وكثيرا ما تكون هـــذه الحالة النفســية ، العرضية ، سببا فى نفورهن من كل ما يؤدى الى الاتصال الجنسى بعــد الزواج . ومثل هذه الحالة «المرضية» سهلة العلاج اذا تداركها الأخصــائى النفسانى قبل استفحالها .

* * *

تبقى بعد هذا كله نصيحة ذهبية واحدة ، هو أن لكل امرأة مزاجهــا الجنسى الخاص بها ، وأن أى «شذوذ» فى هذا المزاج يتوهمــه الزوج ، قد لا يكون « شذوذا » على الاطلاق ، كما أن أى حـــالة من حالات « البرود الجنسى » التى يشكو منها الزوج قد تتكشف ، عند الفحص الدقيق ، عن مجرد وهم يسهل التغلب عليه . ومن هنا كانت استشارة الأخصائى واجبة دائما ، وهذا ما قطعت به التقــارير العلمية والتحليلية الضافية التى تعتمد على دراسة الحالات والأحصـــاءات ، والنماذج « المرضية » الشاذة ، وفى مقدمتها تقرير الدكتور كينزى .

بقى أن تعرف فى النهاية أن الوراثة كثيرا ما تكون مظلومة حــين يسوغ للبعض أن يقحمها فى هذا الميدان ، وهى فى ذاتها ـ على الأقل فى هــذا النطاق ـ وهم لا يقل خطورة وسوء عاقبة عن سائر الأوهام التى عرضنا لها فيما سبق !

والخلاصة أن على الزوجــين أن يدركا تماما أن « الاتصال » فن دقيق يســـتند الى أصــوله النفســية والجسمانية التى لا يمكن اغفالها دون أن يتهم أحــد الزوجين شريكه بأنه السبب فى تحول مباهج الجنس الى مصدر للتنغيص والتعاسة . وليس عارا أن نسعى وراء الحقائق عن طريق الثقافة الجنسية السليمة ، وبواسطة الارشادات التى يملكها الاخصائيون ، ولكن العار كل العار أن نتخذ فى هذا الميدان ، الذى عليه المعول الأكبر فى سلامتنا وسعادتنا ، سياسة النعامة !

ان الانسان لايستطيع الا أن يعمل...لا يوجد شيء بليد لا يتحرك بمعنى السلبية المطلقة ... لقد رفضت « الفيزياء » أخيرا هذه الفكرة .

النظم الاقتصادية والسياسية هي التي تصنع الإنسان

يقول جون ديوى العالم النفسي الأمريكي الكبير ، فى كتابه « الطبيعة البشرية والسلوك » انه لم يوجد حتى الآن نظام اجتماعى لم تستعبد منه بعض المخلوقات البشرية بشكل ما لأجل فائدة الآخرين . ويقال ان هذه الصورة لا يمكن تلافيها لأنها ناتجة عن صفات ملازمة للطبيعة البشرية التي لا تعرف التغير . فيقال مثلا أن أكثر الأخطاء الاقتصادية ناتجة عن نظام الملكية الفردية ، الناتج عن غريزة متأصلة هى حب الامتلاك ، أو يقال انها أثر حتمى لكفاح هو مظهر للتنافس من أجل الثروة ، وهذا التنافس يصدر بدوره عن الحاجة الملحة للربح كحافز على الصناعة . على أن هذه الأقوال كلها تحتاج الى بحث مفصل لما تلقيه من أضواء على مكانة «الدوافع» من السلوك المنظم .

ان أى انسان لا ينكر وجود ميل أصلى فيه يحمله على أن ينسب الأشياء والحوادث الى نفسه ، حتى ليجعلها جزءا من « الأنا » . ويمكننا أن نعترف بأن « الأنا » لايمكن أن توجد بغير « لى » . فالنفس البشرية تتحدد وتتشكل عن طريق أشياء معينة تتجمع لتكون ما نطلق عليه كلمة الذات . وحتى العامل فى المصنع الحديث ، حيث الشخصية منعدمة الى حد بعيد ، تكون « له » آلته الخاصة به حتى ليحدث له قلق من جراء تغييرها . أن الملكية الفردية تشكل وتحدد « أنا » الفلاسفة . ان قولنا « أنا أمتلك اذن أنا موجود » أكثر صوابا من قول ديكارت « أنا أفكر اذن أنا موجود » . ان أفعال الانسان تنسب اليه باعتباره مالكا لها، وليس باعتباره خالقا لها فحسب . وأساس المسئولية والأخلاق والقانون ان الانسان لا يستطيع أن يتخلى عن « ملكية أفعاله » بعد أن تنتهى لحظة حدوثها .

لكن هذه الاعتبارات نفسها توضح لنا أصالة غريزة الامتلاك . « فكلماتى الطيبة، وشهرتى الحسنة ، وأصدقائى، وشرفى ، وعارى » كل هذا يتوقف على طابع الامتلاك . ان الحاجة الى أن يكون ثمة شيء خاص لى هى حاجة لابد من ارضائها ؛ لكنه من ضيق العقل

أن نتخيل أن نظام الملكية الفردية بوضعه الراهن هو الطريقة الوحيدة التى لا مفر منها لتحقيق هذه الحاجة. ان كل حياة هى مغامرة لارضاء هذه الحاجة بطرق مختلفة . انها تحقق نفسها عن طريق الاعتداء الخاطف ، أو تكوين الصداقات ، أو البحث عن الشهرة أو الانتاج الأدبى أو العلمى . وأمام هذه المرونة ، لابد وأن نكون فى جهل فاضح اذا اعتبرنا النظام المعقد القائم،نظام الادخار والمواثيق والقسائم والوراثة ، هو النتاج الوحيد لغريزة الامتلاك بل لقد يحدث أحيانا أن يظهر انسان أهمية الملكية الفردية عن طريق أعطاء شىء . فالمنفعة والاستهلاك هما الخاتمة الطبيعية للامتلاك. ونستطيع أن نتصور حالة نرضى فيها دافع الامتلاك عن طريق اعتبار الأشياء « مللى » حين توزع لفائدة مجموع متعاون .

ترى هل ينطبق هذا الأمر نفسه ازاء المبدأ السيكلوچى الآخر ، مبدأ الحاجة الى الربح الشخصى كحافز يدفع الناس على الاستمرار فى العمل المفيد ؟ اننا لانحتاج الى الاشارة الى مرونة فكرة الكسب ، واحتمال وجود وضع لاتعتبر فيه الأشياء مكاسب شخصية الا اذا أفادت المجموع .

ليس من شك فى أن هناك بعض الصحة فى قولنا ان كل فعل ناتج عن وعى يكون له حافز أو دافع . لكن هذا القول غير محدد كقولنا تماما ان كل حادث له علة . فكلا القضيتين لا يلقى ضوءا على واقعة خاصة .

وهؤلاء الذين يحاولون الدفاع عن ضرورة وجود الأوضاع الاقتصادية القائمة لتكون أدلةعلىالطبيعةالبشرية، انما يحولون هذا الرأى الى حقيقة يعممونها ومن ثم الى أكذوبة معينة . فيقال ان الانسان لا يعمل ، أو على الأقل لا يعمل شيئا يفيد الآخرين ، الا اذا كان أمامه ثواب يحسه . ووراء هذه القضية الكاذبة يكمن افتراض أكثر بشاعة ، أعنى أن الانسان أوجدته الطبيعة فى حالة راحة ، حتى انه فى حاجة الى قوة خارجية تدفعه الى العمل !

لقد رفضت أخيرا فى « الفيزياء » فكرة وجود شىء بليد (لا يتحرك) بمعنى السلبية المطلقة ، فلجأت هذه الفكرة الى علم النفس الاقتصادى لتدلل على أن الانسان يعمل بأية طريقة ، انه لا يستطيع الا أن يعمل . والقول بأن الانسان يتطلب دافعا لكى يعمل انما هو قول باطل بكل معنى من المعانى . فالبطالة للرجل الصحيح هى أكبر اللعنات . وكل من لاحظ الأطفال يعلم أن فترات الراحة أمر طبيعى ، لكن الكسل رذيلة — أو فضيلة مكتسبة . ان الانسان يعمل طالما هو فى

يقظته ، ولو كان يبنى قصورا فى الهواء واذا أردنا أن نستعمل كلمات شكلية يمكننا أن نقول ان الانسان لا يأكل الا لأن الجوع « يدفعه » الى الطعام . ومع ذلك فالقضية ليست سوى تحصيل حاصل . ان من الغباوة أن نتساءل عما يغرى الانسان بالعمل معممين الكلام . انه يعمل . . هذا كل ما يمكن أن يقال فى هذا الشأن . لكن اذا كنا نريد أن نحمله على عمل معين فى هذا الاتجاه المعين بدلا من ذلك الاتجاه ، فيكون من المناسب هنا اثارة مشكلة الدافع . ولكن الدوافع كثيرة كثرة أنواع النشاط المختلفة ، فكيف حدث اذن أن علم النفس الاقتصادى مبسط الأمن الى هذا الحد ؟ ولماذا لم يتعرف الا على نوع واحد من الدوافع ، أى ذلك الذى يتعلق بالربح الشخصى ؟

بداهة أن جزءا من الجواب يوجد فى اتجاه طبيعى يبرر فى كل العلوم ، وذلك بايجاد تبسيطات زائفة مكان الوقائع التجريبية المعقدة . لكن الجزء الهام من الاجابة يتعلق بالظروف الاجتماعية التى يؤدى فيها العمل ، وهى ظروف تضخم بصورة غير طبيعية من شأن الأمل فى الثواب والجزاء . انه يوضح كذلك قضيتنا الرئيسية القائلة بأن الغريزة يمكنها أن تتخذ أكثر من قالب . والذى يحدد ذلك هو الأوضاع والنظم الاجتماعية، فالغريزة الجنسية مثلا يمكن أن تخلق البغى أو الشاعر الغزل أو الرجل المتزوج ، والذى يحدد ذلك ظروف كل من هؤلاء ومجتمعه وبيئته .

والخاصية الاجتماعية التى تفسر لنا سر التضخم هى خاصية من شأن الربح كعامل على الاغراء فى الانتاج ويتكون من الفرق بين العمل Work والكدح Labour . فالكدح فى النظرية الاقتصادية معناه شيء مؤلم ، شيء غير مرغوب فيه اطلاقا ، ويتطلب جهدا كبيرا بحيث أن كل فرد يحاول تجنبه بقدر استطاعته ، ولا يشترك فيه الا من اجل الأمل فى ربح راجح . فالأمر الذى علينا أن نعنى به هو : ما هى الظروف الاجتماعية التى يكون فيها العمل المنتج متعبا وغير ممتع ؟ ولماذا تكون نفسية الصانع مختلفة عن نفسية المخترع والمكتشف والفنان والرياضى والعالم البحاثة والطبيب والمدرس ؟ اننا لا نقرر أن نشاط هؤلاء الأخيرين هو تضحية يتحملونها بحيث لا يؤدون هذه التضحية الا اذا قدمت لهم رشوة بالأمل فى جزاء ما ، أو لأن الخوف من الخسارة قد أجبرهم على الكدح .

ان الظروف الاجتماعية التى يؤدى فيها الكدح قد أصبحت لا تتلاءم والطبيعة البشرية ؛ فهو يؤدى فى أحوال تجعله مملا ؛ ان الحاجة الملحة الى حافز يخرج الناس عن هذه البلادة

الراكدة ، هى الحاجة الى قوة حافزة بحيث تتغلب على المنبهات العكسية الناتجة عن الأحوال الاجتماعية . فظروف الانتاج اليوم تنزع اللذة المباشرة من هؤلاء الذين يؤدونها . فهناك اذن فى علم النفس الاقتصادى الحالى واقعة هامة ، وحقيقية ، لكنها ترجع الى الأحوال الصناعية القائمة لا الى نشاط فطرى أصلى .

انه لمن الطبيعى أن يكون النشاط محبوبا . واذا كان النشاط الانتاجى أصبح مملا لدرجة أن الناس لابد وأن تغريهم وسائل زائفة كى يؤدوه، فهذا دليل كاف على أن الظروف التى يؤدى فيها العمل تعوق النشاط الانسانى بدلا من أن تساعد عليه ، وتفسد الميول الطبيعية بدلا من أن تعمل على خصوبتها واثرائها . وبهذا يستحيل العمل الى كدح . هذا ما أدت اليه لعنة تحمل الانسان أن يؤدى ما لم يكن يؤديه لو استطاع الى ذلك سبيلا ، انها ثمرة خطيئة أخرجت الانسان من فردوس كانت فيه الرغبات ترضيه بغير الصناعة ؛ فما كان يعنى بالطبع أن الفردوس المردود هو تراكم الأموال بحيث أن انسانا يستطيع أن يعيش على حسابها بغير أن يكدح .

اننا نكرر قائلين ان هذه الصورة صادقة الى حد بعيد ، لكنها ليست صادقة بالطبيعة البشرية والنشاط الغريزى . بل هى تتفق والشكل الذى اتخذته الدوافع الانسانية تحت تأثير بيئة اجتماعية معينة ، فصلت بين عمل الأجير ، وعمل الفنان والمخاطر والرياضى والجندى والادارى والمكتشف .

فالطبيعة البشرية اذن ، وان كانت تحوى غرائز معينة ، الا أن هذه الغرائز يمكنها أن تتشكل بأكثر من شكل تبعا للظروف والعادات . وفى هذا يقول چون ستراتش ان الطبيعة البشرية لكل من العبيد والأسياد فى العهد الكلاسى القديم تختلف اختلافا بينا عن طبيعتى الأتباع والنبلاء فى العصور الوسطى ، وطبيعة هذه الشخصيات الاقطاعية تختلف كذلك عن طبائع عمال الأجور والبرچوازيين فى العصر الصناعى . وفى كلمة واحدة، ليس ثمة طبيعة بشرية مجردة عن الزمان والمكان . ان طبائع الكائنات البشرية على الضد من ذلك تتغير بتأثير أى تبدل فى النظام الاجتماعى الذى نعيش فيه .

وتعودنا العمل من أجل الربح ، هو صفة قد تبدو الآن أنها ثابتة فى الطبيعة البشرية الخالدة ، الا أنها من الناحية التاريخية لم تظهر الا فى القرون الحديثة ، اذ تكونت نتيجة

للظروف الاقتصادية للعصر الحديث. فهذه الفكرة مثلا ما كان يمكن أن تنشأ عند العبد طالما أنه لا يكافأ شخصيا على الاطلاق من أجل عمله بل باعتباره آلة انتاج . ومن ثم فان التصور الذى يرى أن الناس يعملون بقدر ما يشجعون على العمل من أجل جزاء ، ليس الا ثمرة تطور النظام الاقتصادى فى القرون الخمسة الأخيرة.

ولقد كانت المهمة السياسية الرئيسية التى أمام البشرية خلال هذه الحقبة هى أن تحطم قيود الاقطاعية عن طريق زيادة القوات الانتاجية . وكانت الطبقة البرجوازية الناشئة تؤدى هذه المهمة بأن تثير فى عقول الناس الأمل فى الثراء الشخصى عن طريق العمل المتزايد . وكان المظنون أن الثراء الشخصى يعقب ذلك بالضرورة بواسطة قوانين طبيعية ، كما اكتشف ذلك أصحاب الاقتصاد السياسى بسبب الصناعة والنجاح المتزايدين ! لكن هذا الظن كان صادقا فى حدود ضيقة جدا . فقد كان مقيدا بوجه عام لهؤلاء الذين كان فى استطاعتهم أن يمتلكوا أو أن يديروا بعض وسائل الانتاج ، أى أنها كانت لمصلحة البرچوازيين لا العمال .

والواقع أن التصور الذى يرى أن الربح الشخصى هو السبب الوحيد الذى من أجله يعمل أى انسان ، انما هو تصور برچوازى لا يمكنه التغلغل الى وجدان الطبقة العمالية حيث لا أمل لهم فى ربح ما .

ويمكننا بنفس الطريقة أن ندرس ما اذا كانت الحرب غريزة وما اذا كان ضعف المرأة ووجودها بالمنزل غريزة .. الخ ، أم أن هذه مجرد «مشكلات» لمجموعة من الغرائز يمكن أن تجد تعريفا لها بوسائل أخرى لو أتيحت لها ظروف اجتماعية مغايرة وبيئة مختلفة .

الدوافع والقيم

قد تكون شهوة السلطة والثروة ، أو الرغبة فى كسب الشعبية ، أو الاستحواذ على الجاه والألقاب دوافع للعمل فى الحقول العامة ، ولكن هذه الدوافع لا شأن لها بالقيم التى تميز الخير من الشر . ولا ريب أن للمبادىء الخلقية منشأ تاريخيا واجتماعيا تحدثت عنه الفلسفة الدياليكتية طويلا ، الا أن المرء حين يتساءل لماذا يمضى فى سلوكه وفقا للعرف الأخلاقى المألوف ، فأن المادية فى رأى ناريان لا تقوى على تقديم أى جواب !

عن كتاب «جيابرا كاشن ناريان — من السياسة الى الحرية» للدكتور **أمين حافظ**

حمايوهات فى هايد بارك

اليوم ١٦ مايو سنة ١٩٥٦ لقد مضى على هنا فى تلك الجزيرة البريطانية أربعة أشهر — هل تصدق ذلك — أنا شخصيا لا أصدق كيف مضت تلك الأيام — اللهم الا أن الله عندما يبتلى الانسان بمصيبة يعطيه من عنده قوة تجعله يحتمل تلك المصيبة — ولقد احتملت أربعة أشهر ولكنى لايمكن أن أحتمل أكثر من ذلك — قد يهون الأمر علىّ لو أنى عرفت المدة التى سأقضيها هنا ولكنى أعمى ، أضرب فى أيام وليال كما يضرب الضال فى صحراء — هل قرأت قصة « دريفوس » الذى حكم عليه بالمنفى فى جزيرة الشيطان وهو برىء — ان الذى أرسلنى الى هنا يتخيل فى ذهنه بأنه أشبه بحكام فرنسا وأنه فى جهله وغباوته قد أرسلنى الى الجزيرة البريطانية لأنه وهو كالغراب أو الفأر يريد أن يلبس جلد الأسد فيزعم أنه أمر وكفى ! — لنتركه فى غباوته اذن ولنترفع فى كبريائنا عليه ، ومع ذلك لا يمكن لى أن أنكر مدى ما أعانيه من آلام — ان من سوء الحظ أن يربط الانسان مصيره — سواء عن رغبة أو رهبة — بمصير مجنون أو جاهل فجنونه وجهله — أتحمل أنا نتيجته — انى أشفق بعد أن رأيت المنفى — أشفق على الذين حكم عليهم بالنفى — ان النفى أشد ألما من السجن — ولذلك عرفت السبب الذى من أجله أصيب « نابليون » فى « سنت هيلانه » بالقرحة المعوية وبالسرطان . انى أشفق على « مكاريوس » وهو فى سيشل — أنت فى السجن تعيش وحدك فى عزلة عن الناس — أما فى المنفى فتعيش وحدك ومع أناس لا تميل اليهم لذلك ترى الألم مضاعفا فى المنفى عن السجن

لقد قيل ان الألم يصقل النفس وبذلك تصبح النفس حساسة فتشعر بعواطف الغير فتعمل دائما الخير . هذا حسن ولكنى لست فى حاجة لأن أتألم لأنى لا أملك سلطانا وليس هناك موظفون تحتى كى أشعر بالخير لهم — ان الذى فى حاجة الى الألم هو من تحت يده موظفون فهو فى حاجة الى كارثة كى تذيب عواطفه وتصقل نفسيته .

أرانى أكثرت فى الكلام عن نفسى

فسامحنى فى ذلك ولنغير الموضوع فأقول لك ان لندن بدأت تشرق فيها الحياة فاليوم طويل ويقدمون الساعة هنا بمقدار ٦٠ دقيقة وبذلك يطول الزمن أكثر فلا تغرب الشمس قبل التاسعة والنصف مساء ولا « تدن » العشاء قبل الساعة ١١ مساء وفى الصباح المبكر يظهر النور . معنى ذلك كله أن الطيور لا تستريح ففى الثالثة صباحا تسمع صوت « الفراخ » وهى تؤذن . ولقد عمت لندن موجة من الحر فسارت الفتيات فى الشوارع « بالمايوهات » وفى حديقة هايدبارك تسير الموجات العديدة من الفتيات بالمايوهات أو ملابس « البلاجات » والموجة اذا جاءت أمامك يجب أن تواجهها بشجاعة وبعين « مبحلقة » وبانتباه يشمل كل حواسك حتى تتمكن من أن تتمتع بالنظر الى كل الفتيات . ويستحسن بعد أن تذهب الموجة أن تسير وراءها فترة طويلة أو على الأقل تدور برأسك معها كى تتمكن من رسم الصورة الخلفية !

والموجة عبارة عن ستة أو سبعة فتيات وقد يكون بين هذه الموجات بعض الرجال من أصحاب الدم « البارد » فيجب عليك وانت تلتقط الأشعة الصادرة من الموجة ان تفنط هذه الأشعة بسرعة جدا وتتحاشى النظر الى « الجنس الخشن » لأن الرجال بين النساء الجميلات يفسدون الرؤية وتحاشيك النظر الى الرجل له سببان : الأول كى تركز كل نظرك على الفاتنات فتتمتع بأكبر كمية من الجمال والسبب الثانى أن الرجل اذا اكتشف انك تختلس النظر فقد يؤدى الأمر الى ما لا تحمد عقباه .

وعليك قبل استقبال الموجة ـ اذا كنت تلبس نظارة أن تمسحها جيدا من التراب والغفار وتضعها بشكل كى تكون البؤرة فى موضع النظر تماما وبذلك تستطيع الرؤية جيدا ، وأحيانا أتحدث الى بعض الفتيات فى هذه الموجات متعابطا أو شبه غريب أو متسائلا أو «عامل مش عارف حاجة» واللطيف أنهن يقفن ويتكلمن معى ويتباسطن حتى يكتشفن غرضى الدنىء فيتركننى ـ والموجة فى لندن تسير بسرعة جدا شأن كل الناس الذين يسيرون فى لندن ـ السرعة هى كل شىء ! ومن المناظر المألوفة فى لندن أن ترى هندية بملابسها الحريرية « الهفافة » أو الزنجية بالمايوه تقلد الانجليزية ـ وهذا المنظر هو أبشع الأشياء الى النفس .

وفى لندن تكثر محلات الرقص ـ والرقص هنا ليس مثل بديعة وانما رقص « أفرنجى » عبارة عن صالة كبيرة تحيط بها بعض المقاعد وقد يصل اتساع هذه الصالة الى أن تكون فى سعة صحن الأزهر والدخول عبارة عن ٣ شلن يعنى ١٥ قرش من الساعة السابعة الى الحادية عشرة ويدخل الصالة حوالى ألف رجل وأربعة آلاف امرأة ولك منتهى الحرية فى الرقص مع من شئت ـ والفتيات يكن دائما بملابس هفهافة « صدرها وأذرعها » عريانه وقد تكون « بالفستان » على اللحم وتدق الموسيقى وتحتضن « نصيبك » أو « قسمتك » وتدور معها فى ظل أنغام الموسيقى ، الصدر على الصدر والأيدى محيطة بالخصر ، و « الخد » على « الخد » . واذا دقت الموسيقى « حد عارف عيشة فى سوق الغزل » ولك أن تقبل التى معك وتحتضنها ـ والنساء كثيرات جدا فى « سوق » الرقص .

واللحم الأبيض رخيص جدا وأنت فى هذا الزحام أو فى المعركة عليك أن تشق طريقك بالقوة دافعا أمامك سيدات كثيرات مستعملا أصابعك لتزيح الكتل البشرية من اللحم . على أنه يجب أن تكون عميقا فلا تزيح من أمامك أو تمسك بيدك « رجلا » وانما كن لبقا فى تحسسك النساء ! ويكثر فى صالات الرقص « العبيد » السود.. ويضايقنى جدا هذا الزنجى عندما يحتضن امرأة ، وتضع خدها الذى مثل القشطة على خده الأسود الذى يلمع مثل الفحمة السوداء ـ وفى ليالى الرقص من الصعب أن تتعرف على واحدة ـ ذلك لأنك بينما تراقص واحدة وتتحدث معها وتتفق على ميعاد ترى واحدة أخرى أحلى منها فتزوغ عينك اليها فتترك صاحبتك وتبتدىء القصة مع الجديدة ثم لاتلبث مرة أخرى أن تجد أحلى منها وهكذا ـ فأنت أشبه بالصياد الدائب الصيد ، يظل يلقى بما يصطاده فى البحر لأنه لا يعجبه أو وجد أحسن منه .

أنت طول الليل تحمل قلبك بين يديك تخشى عليه وتخاف أن يضيع فى هذا الجو العاصف وهؤلاء الفتيات من « عيلة » وفى آخر الليل تذهب كل واحدة الى أمها فتقص عليها مغامراتها وتضحك معها ـ وفى الصباح كل شىء جد وكل فتاة فى عملها ـ وتضم صالات الرقص الخادمة مع سيدتها مع الكاتبة مع الفنانة مع المدرس مع الخادم مع العربجى مع ابن « الـ .. » ـ الكل يتمتع بالآخر على قدم المساواة

وليس هنا « تعرف انت بتكلم مين ؟ » — اذا استغربت متسائلا بذلك الكلام أو مثله ، قد تجد الذى أمامك يرد عليك قائلا « مين ؟ » فتقول له « أنا فلان الفلانى » فيقول « تشرفنا » ثم يستطرد فى حديثه الذى كان مستمرا فيه ..

وفى يوم الأحد الماضى ، ذهبت الى شاطىء البحر وكان اليوم حارا — ان عدد السيارات التى كانت فى الطريق كانت بمعدل ٥٠٠٠ سيارة فى الساعة وكان اللحم الذى فى البحر لا يمكن وصفه وكانت بعض النساء تستحم بمايوه بكينى المصنوع من شجرة التوت — دون استعمال الجزء الذى يغطى الثديين ويمكن لك فى البحر أن تغطس وتعض رجل واحدة دون أن تغضب منك ولكن اياك أن تعض رجلا! ولقد كان من الصعب جدا التنقل على « البلاج » فقد كان أشد زحمة من « بلاچ » سيدى بشر — وعلى البلاچ تختفي عظمة الانسان — فالعظمة عظمة العضلات وجمال الأجسام — لا قيمة هنا للعلم أو الجاه أو الثروة أو المال — وبعض النساء يعجبهن اللون «الأسمر» فيقبلن على متسائلين عن جمال جسمى وكيف تمكنت من أن أصبغه من اللون الأبيض الى الأسمر بهذا الشكل وطبعا أنا جالس وسطهم زى « الفحل » أفتخر بجمال جلدى وهن يتحسسن جسدى كأنى «السيد البدوى » — المرأة اذا خلعت ملابسها وكانت جميلة ازدادت جمالا واذا كانت قبيحة ازدادت قبحا والفتيات هنا مثل « فينوس » وطالع ! كلهن أولاد « ذوات » — «بنات انجليز» — الشعر الأصفر الذهبى والجسم الشامخ والعيون الزرقاء ..

تصور كل ذلك يتمسح فى العبد لله ؟! — وأنا عامل « تقيل » — ولما انتهى اليوم أو بعضه لبست ملابسى وكنت قد تعرفت على عائلة مكونة من زوج وزوجة وصديق وصديقة وكان لهم عربية فعرضوا على أن يصحبونى فى طريق العودة للندن وجلست بين السيدتين وكانت الفتيات يضحكن وأنا كنت بينهن مثل « البهلوان » ، لأن الفتيات عندما يضحكن يتمايلن على وأنا أحب هذا التمايل ولكن دون أن أثير انتباه الرجلين — والانجليز يصدقون كل ما يقال لهم مهما يكن خرافة أو كذبا .

ولندن الآن ممتلئة بالسياح ويقدر زوارها من السياح هذا العام بمقدار مليونى نفس ، ولذلك ارتفعت أجور اللوكاندات شأن كل صيف ، وبالتالى

ارتفعت أثمان الأطعمة وخاصة الخضراوات - تصور أن ثمن رطل الطماطم ٦ شلن يعنى ثمن الأقة ٩٠ قرش (لأن الأقة حوالى ثلاثة أرطال) - أما التفاح فما زال ثمنه منخفضا حوالى ٧ قروش الرطل وأغلى الأشياء هنا الخس والخيار فرطل الخيار ٦ شلن .

نسيت أن أحدثك عن خطباء هايدبارك - ان الخطيب يقف على منصة يتكلم فى الموضوع الذى يراه وحوله « السميعة » . وفى هايدبارك يمكن لك أن تقول ما تشاء من الكلام بحرية مهما يكن القول على شرط الا « تتخانق » - استعمل ما شئت من الألفاظ النابية حتى مع معارضيك وكن غليظا فى مناقشتك ولكن اياك أن تمد يدك.. وبمناسبة هايدبارك فعقوبة الذى يقطف زهرة أو يكسر شجرة ، أو يلقى قمامة ، خمسة جنيهات يدفعها للجندى الذى يضبطه مقابل وصل ، والا اعتبر امتناعه عن الدفع جريمة أخرى .

وليس لانجلترا تراث فنى مثل ايطاليا أو اليونان أو فرنسا أو مصر أو الفن العربى أو الفرعونى - لأن انجلترا نشأت جزيرة قحلاء . ويعمل الذين يعيشون فيها بعرقهم والا ماتوا؛ فلا يبقى لهم بعد ذلك وقت للفن ! ولذلك كانت تماثيلهم خالية من الروعة الفنية وتنسيق متنزهاتهم أو بيوتهم أو ملابسهم خاليا من الذوق الفنى ، وان كان فيه الجودة والمتانة . ولذلك قد تجد امرأة انجليزية جميلة جدا جدا وتلبس حول رقبتها عقد «خرز» مثل التى كانت تلبسه جدتى فى كوم النور ! والانجليز يميلون الى كل شىء عتيق وقديم وبيوتهم ما زالت تجمع فى ذوقها الماضى العتيق كما يميلون الى الألوان الداكنة ! وهم اذا صنعوا شيئا أتقنوه وهم يشقون الشوارع ويبنون المساكن ببطء ولكن بجودة .

انا أذهب الى مدرسة الفنون الجميلة فى المساء وأرسم صورا من الحياة . والمدرسة حكومية ويمكن لأى انسان له غية فى الرسم أن يلتحق بها وتقف المرأة « الموديل » عارية كما ولدتها أمها مدة ساعتين وهذه المرأة العارية - امرأة مثقفة قد تكون متزوجة أو طالبة وهى موضع احترام الأستاذ والطلبة ووجودها عارية لا يغير من شخصيتها ..

وبهذه المناسبة توجد هنا نوادى عديدة للعراة ، وأذهب أنا الى بعضها .

وفى النادى تجد الزوج والزوجة والأولاد وكلهم عراة وهذه النوادى اما تتجمع فى منازل فيها التدفئة الصناعية الكافية وأما فى خلوات واسعة فى « غيطان » . وفى النادى قد يكون فيه حوالى ٥٠٠ واحد بين نساء ورجال . والذهاب الى النادى يحتاج الى أعصاب لأن عليك أن ترى أشياء مهمة دون أن تثير الانتباه ودون أن تفضح نفسك .

لندن جميلة جدا ــ لو أنى كنت أعيش فيها برغبتى أو لمدة أجازة شهرين أما فى منفى بهذا الشكل فأنا زاهد فى كل جمال فيها ، وفى كل ما فيه معنى الفتنة ــ ان بى حنينا شديدا الى الذباب الذى تكافحه أخبار اليوم ..

عصام محمد سليمان

العرب أمة واحدة

المصريون ، والسوريون ، واللبنانيون ، والعراقيون ، والنجديون ، والحجازيون ، واليمانيون ، والليبيون ، والتونسيون ، والمغاربة . . كلهم ينتسبون الى أمة واحدة هى الأمة العربية . هناك شعوب عربية عديدة ، ولكن هذه الشعوب تنتسب الى أمة واحدة ، هى : الأمة العربية . .

هناك دول عربية عديدة . ولكن هذه الدول كلها تسوس فروعها أمة واحدة ، هى الأمة العربية . . لكل واحد منا . . لكل واحد من منتسبى هذه الشعوب ، لكل واحد من مواطنى هذه الدول أن يقول : أنا مصرى ، أو أنا عراقى ، أو أنا سورى ، أو أنا لبنانى . ولكن عليه أن يقول فى نفسه : أنا عربى، كما يجب عليه أن يقول : العروبة فوق الجميع .

عن كتاب « الأمة العربية وجيشها الموحد »

لعبد العزيز الدسوقى

عائدة من باريس

● قال الزوج لزوجته العائدة من باريس :

ــ كيف حال باريس ؟ هل استمتعت بالرحلة جيدا ، أم كنت سيدة مهذبة ؟ ! .

كل طفل يمكن أن يكون نافعا اذا وجد العناية الكافية .

لكل طفل مدرسته

روى أحد الأطباء وهو أخصائى للأطفال بأنه سيكون لكل طفل مدرسته وذلك بأن وضع قواد الخدمات المدرسية نظاما يشتمل على اكتشاف آثار الأمراض فى الأطفال وعلى المراقبة المتتالية حتى يصبح التلميذ الذى يذهب الى المدرسة لا يتألم من نقص خطير قد يظل مستترا . وعند اكتشافهم لهذا النقص الخطير فى احدى هؤلاء الصغار يبلغ الأمر الى الوالدين فخصصوا فصولا لبعض أنواع المصابين بالنقص (سواء أكان جسديا أو عقليا) .

قديما كان هؤلاء الصغار العاجزون سببا فى تأخير زملائهم الأذكياء . فكانوا لا يتعلمون شيئا حتى أصبحوا غير قادرين على عيشة مدرسية طبيعية . أما اليوم فانهم يستطيعون أن يتلقوا التعليم المناسب بحالتهم الراهنة فى فصول مخصصة لهم . فتوجد فصول من هذا النوع فى كل فرنسا ويكفى أن تتصل كل عائلة بالخدمة المدرسية الطبية لمعرفة عنوان تلك الفصول ويوجد منها نوعان فى الاقليم الباريسى: النوع الأول للاصلاح والثانى للصناعات .

أما فى باريس فتوجد مدرسة للأولاد يتعلمون فيها التعليم الصناعى مثل الأسبتة والأحذية ولف البضائع والتجليد كما توجد أيضا مدرسة للفتيات يتعلمن فيها النسيج والحياكة .

أما من جهة الأطفال المصابين بالنقص جسديا كضعف فى البصر الذى هو أهم الأسباب فى تأخيرهم عن دراستهم فقد نظمت الخدمة الطبية المدرسية فصولا درست فيها كيفية الضوء والأدوات اللازمة لتلك الفصول لتسهيل الدراسة لهؤلاء الأطفال خصوصا أن هؤلاء الذين كانوا عاجزين عن العمل نجحوا فى دراستهم كزملائهم الذين يبصرون جيدا .

وتوجد فصول لفاقدى البصر وفصول أخرى للمصابين بالشلل وأوجدوا فى باريس عربات تنقل الأطفال فى الصباح من منازلهم وتعيدهم فى المساء الى ديارهم . وبذلك تغيرت حالتهم المعنوية بعد أن كانوا لا يتركون

المنزل وكان تعليمهم بسيطا جدا . وزيادة فى راحتهم أنشأوا فى الفصول المعدة لهم عربات صغيرة أمام مكاتب صغيرة صنعت خصيصا لهم فاستطاعوا أخيرا أن يعيشوا عيشة مدرسية تتناسب مع ظروفهم فيشتغلون ويلعبون مع تلاميذ فى مثل سنهم وبذلك تحسنت حالتهم فلا يشعرون أنهم أقل منهم .

كما توجد فصول أيضا للصم والبكم .

فيستطيع كل انسان اذن أن يكون نافعا . ومما ساعد على نجاح هذه الفصول كون القائمين عليها يشتغلون باخلاص وضمير حي ولا يألون جهدا فى البحث واكتشاف هؤلاء الأطفال .

فمن واجبنا أن نستجيب لكل نداء صادر من الخدمة المدرسية الطبية وأن نساعدهم للبحث عن هؤلاء الأطفال فلربما لا يوجد لدى البعض منهم عنوان المركز الرئيسى حتى يكون طفلها فى المكان المناسب . وقد بدأت هذه الخدمة الجليلة منذ بضع سنوات لكى لا يحرم اى طفل من العناية والتعليم والوصول الى مركز فى الحياة الاجتماعية . وان أعظم مساعدة لهؤلاء القائمين بهذا العمل الجليل مكافحتنا معهم على تذليل الصعاب .

البنت افضل

اذا أردت أن تتبنى طفلا فهل تختاره ولدا أم بنتا ؟؟

معظم الناس يميل الى تبنى البنات . ففى كل اسبوع تتلقى المنشآت الثلاثة الكبرى للتبنى فى بريطانيا سيلا من الطلبات من الذين يريدون أن يصبحوا آباء وأمهات يلحون فى الحصول على بنات صغار وقليلون جدا هم الذين يطلبون الأطفال الذكور .

ومس هيلين ، م . بلاكبيرن سكرتيرة منشأة التبنى الأهلية تقول فى هذا الصدد أن الأسباب متعددة فمن بين تلك الأسباب أن الفتاة الصغيرة تكون رفيقة ممتازة للزوجة . واذا كان هناك قلق من ناحية أن الطفل المتبنى سوف لايحظى بحياة سعيدة تقل الأهمية اذا كان الطفل أنثى . واذا كان هناك احتمالات من عدم وجود أطفال . فهناك أيضا أمل كبير فى أنجاب طفل وفى هذه الحالة لا يرغبون فى تبنى الطفل الأول .

وهناك فى منشأة التبنى بانجلترا كثير من الأولاد والبنات يقدمون للمتبنين .

ففى سنة ١٩٤٩ استطاعت منشأة التبنى الأهلية أن تقدم ٢٢٧ طفلا منهم ١٣٨ ذكرا و ٨٩ انثى .

في عالم الكشوف التاريخية الحديثة :

ماذا وراء لفائف وادى القمران بجوار البحر الميت من خفايا وحقائق؟

خلاصة بحث للعلامة الأثرى ادموند ويلسون

تقدمت البحوث العلمية التاريخية، التى تستند الى الكشوف والحفريات، تقدما ملحوظا خلال الخمس عشرة سنة الأخيرة ، وخاصة فى ميدان اللاهوت ومجال اثبات الأخبار والمرويات المأثورة منذ عهود التوراة الأولى حتى عصر الميلاد ، وعلى الأخص تلك الفترة التاريخية السابقة على عصر الميلاد ، اى قبل سقوط أورشليم فى أيدى الرومان للمرة الثانية عام ٧٠ ميلادية ، وتدمير الهيكل تماما بواسطة جنود القائد الرومانى تيطس .

ولقد كانت فلسطين وسوريا والعراق أهم المناطق « التاريخية » التى استهدفت لنشاط البعثات التنقيبية المختلفة ، باعتبار أن بقعة الهلال الخصيب ، ومعها فلسطين حتى حافة الصحراء الجنوبية (شمالى بلاد العرب) ظلت عدة قرون – منذ هجرة ابراهيم الخليل على رأس عشيرته العبرانية من اور الكلدانيين ، حتى انبثاق فجر المسيحية – مسرحا ضخما لأهم الأحداث التاريخية التى كونت مادة التاريخ المقدس عند اليهود وعند المسيحيين على السواء ..

ومنذ عام ١٩٤٨ والأنباء تترى فى جميع أنحاء العالم ، حاملة للمعاهد والجامعات ، ومراكز البحوث التاريخية فى الشرق والغرب ، أخبار الكشوف الأثرية الضخمة التى أتيح لبعض العلماء كشفها بمنطقة كهوف وادى القمران ، قرب البحر الميت ؛ وهى كشوف تتعلق بأنباء الطوائف اليهودية خلال عصر الميلاد ، أو بمعنى أكثر وضوحا ، بأنباء طائفة «الآسينيين» خلال الفترة التاريخية القصيرة السابقة على الميلاد ، وهى فترة يمكن تقديرها ، نسبيا ، بقرن كامل من الزمان ؛ وهذه الطائفة ، رغم قلة عدد اتباعها كما ذكر مؤرخ اليهود الأكبر يوسيفوس ، مهمة مع ذلك الى حد ملحوظ ، نظرا لما يذهب اليه

الظن القوى من أن الأساس الروحى والفلسفى للمسيحية يرتد الى تعاليم هذه الطائفة ، التى يظن ، أيضا ، أن يوحنا المعمدان (يحيى المغتسل) كان أحد تلاميذها ، ورائدا من روادها الممهدين لعصر عيسى عليه السلام ..

ومن بين أسماء الكثيرين من المشتغلين بالبحث والتنقيب فى هذه البقعة ، لتحقيق أنباء الفترة التاريخية المشار اليها ، يبرز اسم البروفسور « ميللرباروز » Millar Burrows الأستاذ بكلية Yale اللاهوتية بأمريكا ، وهو الذى قضى فى أورشليم (القدس) عدة سنوات شغل خلالها منصب رئيس مدرسة البحوث الشرقية ؛ وكان هذا الأستاذ رئيسا للمدرسة المذكورة حين وردت الأنباء فى فبراير سنة ١٩٤٨ بكشوف وادى القمران ، وبالعثور على عدد من اللفائف والأسفار العتيقة Scrolls ، ومن بينها سفر اشعيا ؛ وبعض هذه الأسفار يتضمن « نصوصا » لم ترد فى التوراة المتداولة ! .

ولقد حملت هذه الأسفار الى مدرسة البحوث الشرقية بالقدس ، حيث عكف الأستاذ « باروز » على فحصها فحصا علميا دقيقا ، وقام باستثبات نصوصها ، ودراستها دراسة مقارنة ؛ وتبين له أنها تتصل بأنباء وأحداث القرنين السابقين على السنة المرجحة للميلاد ، كما تمتد زمنا الى القرن الأول الميلادى .. وهذه القرون الثلاثة هى فى الواقع أهم فترة تاريخية يعنى ببحثها وتمحيصها فقهاء اللاهوت وعلماء المقابلة بين الأديان .

وكان أحد هذه الكهوف الواقعة فى منطقة القمران يمتد مسافة داخل التلال الصخرية بالمنطقة ، على مقربة من شواطىء البحر الميت ، ووجد مقسما الى قاعات وغرف ، يشمل بعضها مكاتب ومناضد حجرية للكتابة ، بها حفر تملأ بالمداد ، ثم مخادع واسعة للنوم ، مما يقطع بأنه كان يستخدم فى ذلك العصر المتقدم كمدرسة « مذهبية » خاصة ، اذ دلت طبيعة المكان نفسه على أن القصد من اتخاذ موقعه داخل كهف خفى ، هو اخفاء أمره عن الرومان ، وحمايته من عدوانهم حتى لا يتخرب ويتبدد أتباعه ومريدوه .

وتقطع بعض النقوش الموجودة على أحجار المكان بأن هذه البقعة كانت مقرا لطائفة الآسينيين احدى

الطوائف اليهودية التي أشرنا اليها فيما تقـــدم .

وتمخضت دراسة الأستاذ باروز لهذه الأسفار والوثائق ، ومعها بعض النقوش الحجرية التى كشفت بمنطقة الكهوف ، عن بعض النتائج الهامة التى ما زالت موضع نظر كثرة كبرى من علماء اللاهوت والتاريخ ، ومحـــل دراستهم المتعمقـــة ؛ وكان الأســـتاذ «باروز» قد ضمن دراسته استعراضا وافيا لكل الآراء والنظريات التى دارت حول هذه المكتشفات ، سواء تلك التى يؤيدها وتحظى بترجيحه ، أو تلك التى يعارضها معارضة صـــارمة .. وهذه الدراسات هى اليوم موضوع كتاب ضخم له ، يعد فى الواقع أبرع عمل أدبى وعلمى أخرجتـــــه المطابع الغربية فى السنوات الخمس الأخيرة .

وتضمن مؤلف الدكتور « باروز » ترجمة دقيقـــة وكاملة لعـــــدد من « المخطوطات » المكتشفة ، ومن بينها مخطوطان مهمان جدا ، أثارا عاصفة من الجدل والتعليق والنقـــد فى كل الدوائر الجامعية واللاهوتيـــة حتى اليوم . أما المخطوط الأول فهو يحمل هذا العنوان ، الذى أثبته كاتبــــه القديم المجهول : «مزامير عيد الشكر» ؛

وعنوان المخطوط الثانى هو : « حرب أبناء النور مع أبناء الظلام » .

أما المخطوط الأول ، أى مخطوط المزامير ، فهو عبارة عن مقطوعات من الشعر الغنائى الدينى ، الرفيع النسق والتفكير معا . ويعلق الدكتور باروز على هذه المزامير التى لم تدونها أسفار التوراة المتداولة ، بقوله : « ان عظمة المزامير التوراتيـــــة ، وعلو كعبها فى البلاغة الأدبية ، ورسوخ شهرتها فى التاريخ ، تكاد تجعل من الصعب حقا الجزم بما اذا كانت المزامير المخطوطة التى اكتشفت فى كهوف وادى القمران تقل فى الشأن الأدبى والدرجة البلاغية عن الأولى أم أنها تسامتها بلاغة وقدرة على التصوير الدينى والعاطفى الراقى» .. ويذهب عدد من الدارسين لهذه النصوص فى جامعات انجلترا وأمريكا الى أن مزامير وادى القمران لون من الإنتاج الأدبى ينفرد بتفوقه وامتيازه لا جدال ! ويرى عدد من العلماء الذين لهم شأنهم فى هذا اللون من الدراسات أن هذه الأناشيد والقصائد الدينية التى لم تكن معروفة من قبل لجامعى أسفار التوراة ممن اهتموا بتجميعها بعد السبى ، والتى لم تكن معروفة أيضا لمن اشتركوا فى العصر اليونانى (٣٠٠ ــ ٢٠٠ ق . م) بالاسكندرية

فى الترجمة السبعينية (١) ـ هذه المزامير « الجديدة » قد يكون مؤلفوها وصاغة أغنياتها الشعرية لفيفا من صرعى الهيام الدينى من « النذيرين »، اللذين كان أهلوهم ينذرونهم لخدمة الدين ولحياة القنوت والعبادة ، والتهجد فى الخلوات البعيدة .

على أن فريقا آخر من الباحثين يذهب الى رأى مخالف للرأى السابق، ويرجح ، على سبيل الحدس القوى، أن واضع هذه القصائد وناظمها هو شخصية واحدة متميزة بسماتها التى لا يضل عنها من يتعمق قراءتها وتذوقها ، ويقولون أن هذا الناظم البليغ هو ذلك الذى أطلق عليه لقب واحد عتيد فى لفائف وادى القمران ، « معلم الحق » ؛ انه الانسان الذى يذهب بعض الدارسين لهذه النصوص والى أنه يسوع المسيح نفسه ! ولكن الأستاذ « باروز » لا يجد ما يرجح هذا الظن ويرى انه لا يعدو أن يكون واحدا من الخارجين على سلطان الكهانة والهيكل ، ومن الثائرين فى الوقت نفسه على السلطان السياسى للرومان باعتبارهم غاصبين للأرض المقدسة ، المكونة من الجليل والسامرة واليهودية، خلال العصر السابق على سنة الميلاد .

والواقع أن انات هذه المزامير ، ونبرات الثورة والألم والسخط المرير التى تفيض بها هذه الأغنيات ، تكشف عن نفسية انسان عانى الاضطهاد فى عنف وقسوة ، حتى ليرجح أنه مات ميتة الشهداء ! . ولكنه لم يبلغ مع ذلك أن يكون « مسيحا » يجمع فى شخصه كل الخلال والصفات ، ومعها المعجزات ، التى أجمعت عليها الأسفار والنبوءات اليهودية القديمة لتجعل من صاحبها مسيحا يؤمن به الناس ، أى هاديا فى نهاية الزمن ومحققا لعصر الخلاص الذى طال انتظار اليهود له ليخلصهم من ربقة الرومان الوثنيين ، ويعيد اليهم مجدهم السياسى والدينى الذى وحد أسباطهم وقوى شأنهم أيام داوود وسليمان قبل أن تسحق مملكتهم دولة الآشوريين سحقا ، وتسوقهم أمام جحافلها الظافرة سبايا ذليلة الى بابل ونينوى ..

---

(١) لما انتشرت اليونانية فى بلاد الشرق الأوسط ، وعلى الأخص مصر، عقب فتوح الاسكندر افتقر اليهود الذين لا يعرفون الآرامية (التى ترجمت اليها أسفار التوراة خلال عصر السبى) الى ترجمة التوراة الى اللغة اليونانية الى يقرأونها ويكتبونها ؛ ومن ثم انتدب يهود الاسكندرية سبعين عالما من علمائهم لهذه المهمة ، وسميت ترجمتهم بالترجمة السبعينية التى لها أهمية خاصة عند اليهود وعند شراح التوراة ، واعتبرت نصا رسميا للكتاب المقدس حتى اليوم .

على أن هناك اعتبارا علميا جديرا بالتقدير لفت نظر العلماء الدارسين لهذه المخطوطات المستخلصة من تحت الأنقاض والخرائب ، ذلك هو محاولة المقارنة بين هذه المزامير ، وبين بعض المزامير التوراتية المظنون نسبتها الى سليمان الحكيم ، فقد ظهر أن هناك أوجه شبه عجيبة بين مراثى مزامير القمران ، التى تنعى على القوم تخاذلهم فى نصرة العقيدة الى حد استخذائهم المشين للمضطهدين لهم ، وتنذرهم بغضب «يهوا» الرهيب ، وبين تلك الارهاصات والنذر التى أنطوت عليها المزامير المنسوبة الى الجامعة .. والأكثر من هذا ، أن مزامير وادى القمران تتضمن عبارات ونصوصا **قريبة الشبه جدا ببعض آيات الأنجيل** ، وخاصة أن المزمور الخامس منها ، يصف فيه ناظمة ، نفسه ، بأنه اشبه بامرأة حامل ، تحس وهى فى غمرة آلام المخاض ، وشبح الموت ماثل أمامها ، أنها توشك ان تلد « طفلا — رجلا » يكون ناصحا ومرشدا لقومه ، يأخذ بناصرهم ويهديهم الى سواء السبيل!.

* * *

ومن هذه المشابهات بين النصوص حاول العلماء ان ينفذوا الى المصدر أو المصادر التى تبرر او تعلل الفكرة التى خالجت اذهانهم من ان نحلة وادى القمران كانت احدى النحل السرية التى خالطها فى صباه ، بل وتربى فى حجر تعاليمها السيد المسيح ، حتى لقد ذهب البعض الى حد التساؤل : هل ثمة ما يدعو الى التشكيك فى مصادر التوراة (١) ، وهل سجلت تسجيلا امينا ؟! وهل نصوص الأناجيل الأربعة المتمدة (متى — مرقس — يوحنا — لوقا) كاملة لا تنقصها ، حين سجلت ، بعض الآيات التى كشفت مدونة فى لفائف ومطمورات وادى القمران ، والتى تشبه شبها قويا ، بل وتطابق تماما ، المأثور عن اقوال السيد المسيح فيما دونه كتاب الأناجيل عنه ؟!

---

(١) لا يخفى ان من العلماء ذوى النزعة العلمية المتحررة من يصل عن طريق الدراسة النقدية المقارنة الى القول بتأثر التوراة فى بعض أسفارها بشريعة حمورابى وبصلوات اخناتون ، فضلا عن تأثر أدب الدين العبرانى بالقصص الفينيقى ، وببعض اناشيد الرعاة الآرامية ؛ ومن ثم فأنهم يقولون ان نصوص التوراة — عدا كتب موسى الخمسة فى نظر البعض — ليست موحى بها ، بل هى قد سجلت فى عصور متأخرة عن سماع بعيد ، وان العبرة هى فى قيمتها الروحية لا اكثر !

ان الأستاذ « باروز » يعرض لهذه المشكلة الدقيقة ، بعد دراسة طويلة متأنية ، استغرقت خمس سنوات كاملة ، انتهى منها الى قوله : « اننى لأعترف جادا بأننى لم أجد بعد دراستى الدقيقة الشاملة للفائف وادى القمران شيئا جديدا يمس معتقدى المسيحى ، أو يحملنى على التشكك فى الأساس الدينى للأناجيل؛ بل لقد زدت يقينا بأن الأساس العبرى للكتاب المقدس بدا لنظرى العلمى أكثر ثباتا وأكثر وضوحا .

على أن بعض الدارسين المحدثين من علماء الحفريات ، وممن ينزعون منزع الشك العلمى ، ويطيب لهم التشكك فى الشخصية التاريخية للسيد المسيح ، يذهبون الى رأى مناقض لرأى الأستاذ « باروز » ، ويرون فى لفائف وادى القمران فهما خاصا ، وجديدا ، للوقائع الدينية كما دونتها السجلات العبرية والمسيحية . . حتى أن منهم من يوقن بأن الأنجيل الرابع تكشف نصوصه عن أسلوب يوحى بأنه كان لكل من يوحنا المعمدان وعيسى المسيح (لو صحت جدلا شخصيته التاريخية فى نظر هذا الفريق) صلة قوية بنحلة وادى القمران السرية . . ويرى الدكتور فرانك كروس أن هذه الأسفار المكتشفة ، وخاصة سفر « مزامير الشكر » وسفر « حرب أبناء النور ضد أبناء الظلام » ، وما تضمناه من نصوص قريبة الشبه من نصوص الأنجيل الرابع ، تمثل فى الواقع مرحلة نهائية لمذهب الآسينيين (أو الأساة) حين انفصلت تعاليمه تلقائيا عن تعاليم الهيكل ، واستقلت كنحلة خاصة تفردت بأسرارها وطقوسها فى ذلك المعتزل الصحراوى المتاخم لشواطىء البحر الميت .

على أن ثمة أمرا غريبا يستلفت نظر الباحثين ويوقعهم فى حيرة شديدة ، ذلك هو عدم الاشارة قطعيا، سواء بصورة مباشرة أو غير مباشرة ، فى أى انجيل من الأناجيل الأربعة ، الى نحلة الآسينيين هذه ، رغم امتلاء الأناجيل كلها بأخبار الصدوقيين والفريسيين ؟ ! .

ان الأستاذ باروز يعلل ذلك بفرض بعيد ، هو أن كتاب الأناجيل يحتمل أنهم لم يسمعوا اطلاقا بهؤلاء الآسينيين ! ولكن ينقض هذا الفرض البعيد الاحتمال ، أن العقيدة المسيحية جاءت بتعديل جوهرى لكل مذهب من المذاهب الثلاثة الرئيسية (الصدوقيين والفريسيين والآسينيين) وهى

المذاهب التى شاعت فى العالم اليهودى قبيل عصر الميلاد ، وأفاض فى ايراد أخبارها وتدوين تعاليمها المؤرخ يوسيفوس ؛ بل لقد أثبت يوسيفوس، بفضل القسم الكبير الذى خصصه فى تاريخه لأخبار الآسينيين وتعاليمهم ، أنهم أهم الطوائف اليهودية طرا فى عصر الميلاد ..

أما الأستاذ كروس المشار اليه آنفا (وهو أستاذ الدراسات اللاهوتية العليا بجامعة شيكاغو) فيرجح أن عدم اشارة الأناجيل الأربعة الى الآسينيين، رغم قطع الأسانيد الأثرية والدراسات الحفرية بوجود صلة ما بينهم وبين يوحنا المعمدان ، ومن ثم بيسوع المسيح الذى بدأ أولى مراحل رسالته بالتعبد فى البرية البعيدة زمنا (بقصد التأمل والرياضة الروحية) انما يرجع الى أن هذه الطائفة لم تكن موضع بغض المسيحيين الأوائل مثلما كانت طائفتا الصدوقيين والفرسيين .

ولكنى أرى شخصيا من دراساتى الخاصة لهذا الموضوع ، ومن استنتاجاتى أيضا ، أن تلك الصلة القوية التى كشفت عنها أدلة عديدة ، ليس أقلها شأنا مكتشفات وادى القمران (وأعنى بها صلة يوحنا المعمدان المهد الأول للرسالة المسيحية، بالآسينيين فى مقرهم قرب البحر الميت ، وما يحتمل أن يذهب اليه أعداء الرسالة المسيحية كأحبار الهيكل الصدوقيين ونظرائهم الفريسيين ، من أن المسيحية ــ ولو فى بعض تعاليمها ــ ليست الا صدى لتعاليم هؤلاء الآسينيين ،أو اقتباسا عنهم) ــ أقول كانت هذه الصلة ،سببا وجيها فى تكتم المسيحيين الأول لأمرها ، بل وتعمدهم اغفال الاشارة اليها بتاتا ، حتى لا يقال ان ثمة دينا أدبيا تدين به النحلة الآسينية هؤلاء اليسوعيين ..

ومشكلة المشاكل فى الدراسات التاريخية اللاهوتية الجديدة ، التى أثارتها مكتشفات وادى القمران ، تنحصر فى النقاط الآتية :ــ

أولا : تحديد مدى علاقة يوحنا المعمدان ، بوصفه أحد الممهدين للرسالة المسيحية ، بمدرسة وادى القمران ، مقر الآسينيين .

ثانيا : تحديد علاقة الآسينيين وتعاليمهم ، بعيسى عليه السلام ، وبالتالى ، بتعاليم الرسالة المسيحية .

ثالثا : محاولة اثبات الشخصية التاريخية للمسيح ، والرد على مدارس الشك التى استفحل خطرها فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، وهى المدارس التى زعمت أن المسيحية انما

ترتد فى صميمها الى رواسب ومخلفات العبادات الشمسية القديمة !.

رابعا : التثبت من أن نصوص الكتاب المقدس (التوراة والأناجيل الأربعة) سجلها مدونوها وكتابها تسجيلا أمينا ، سواء عن سماع بعيد كما فى التوراة ، أو عن سماع قريب نسبيا كما فى الأناجيل ، وأن ما كشف من لفائف جديدة فى وادى القمران لا يمس المعتقد المسيحى فى أساسه ، ولا يشكك فى الوقت نفسه فى سلامة الأساس العبرى الذى يستند اليه الكتاب المقدس ..

اما قيمة هذه البحوث من حيث علاقتها بالتطور الحضارى ، فيما يتصل بفلسفة المعتقدات والقيم ، فانها فى الحق قيمة علمية لا تقدر بحال ، ويعكف اليوم على تجليتها الأساتذة بروز وكروس وأوسكار كولمان وهاردنج وبارثيلمى والدكتور آليجرو ومكتب البحوث اللاهوتية بالفاتيكان ؛ ولسوف تتكشف هذه الدراسات قريبا عن حقائق وعجائب قد لا تخطر ببال انسان !

استقلال الشعوب

ان النص على حق تقرير المصير فى ميثاق هيئة الأمم المتحدة كان له أثر كبير فى المعاونة على تحقيق استقلال الأمم الكثيرة التى حققت أهدافها فى الاستقلال والحرية فى أعقاب مولد الأمم المتحدة ، ومن هذه الأمم على سبيل المثال : سوريا ، ولبنان ، والهند ، وباكستان ، وليبيا ، وبورما ، واندونيسيا ، والفليبين، ولو أن هذا محل الاغفال والعدوان من جانب الدول الاستعمارية ومن بين هذه الحالات على سبيل المثال ، اصرار فرنسا ، على استعمار الجزائر ، وبريطانيا على استعمار قبرص ، وايطاليا على بسط نفوذها على الصومال رغم وضعها تحت وصاية الأمم المتحدة .

الحياة

مثل الحياة كطائر يترنم ، رقصت الأزهار من كثرة اغانيه وان الحانه لعذبة جميلة كالحلم المحلق فى الفضاء .

(محمد اقبال)

دور الفكر الأوروبى فى عصر الاستنارة

القوى الاجتماعية هى التى تحرك عجلة التاريخ ؛ والعامل الاقتصادى نفسه هو احدى هذه القوى . وما التاريخ ، منعكسا على أحداثه وانقلاباته فى أى مرحلة من مراحله ، الا ذلك الاطار الخارجى الوهمى لمضمون دائم التغير والتحول!

وهذه القوى الاجتماعية التى تتعاقب عليها صور التجريد والتجسيد ، كامنة أبدا فى ضمير المجتمع الانسانى ، بمطلق مفهومه ، منذ كان هناك مجتمع ، وكانت هناك – بحكم وجود مجموعة من الناس تتلاقى فيه وتتعايش – مشاعر واعية وغير واعية ، وأفكار وطاقات تحرك ارادة الحياة نحو مصايرها المختمرة فى طوايا الأحقاب المتعاقبة .

والفكر الانسانى عامة ، حتى الفكر الانطلاقى الثائر ، لا يبتعث أحداث التطور ابتعاثا مفاجئا ، وبمعنى آخر لا يخلق القوى الاجتماعية وآثارها من عدم ، فهى موجودة وجودا تلقائيا كاحدى حقائق الكون المسلم بها ، غاية الأمر أنه يخلى أمامها الطريق ، ويفسح أمامها مجالات الاختمار والانطلاق ، بعد أن ينظف خطوط السير العريضة التى ستسلكها ، أو يحتمل أن تسلكها ، من العقبات المصطنعة والعناصر الشامخة ، والقيم أو « المثل » التى تهافتت وبهتت بمرور الزمن ..

فمن المبالغات المنكورة اذن ، أن يتوهم المتعصبون لسلطان الفكر والعقل ، أو حتى المتمردون على هذا السلطان (أى المؤمنون بسلطان الغريزة العمياء والوثبة « الحيوية » المفاجئة) « منطقية » أو صحة المذهب القائل باسناد كل انقلاب ، أو تطور حركى فى التاريخ ، الى النظريات « اليوتوبية » ، أو الى التفكير الأيديولوجى وحده .. بل لعل الأكثر استقامة مع المنطق التاريخى ، لكل الانقلابات وأدوار الانتقال والتحول ، هو التسليم بأن الفكر الأيديولوجى وحده ، بكل تجريداته وايغالاته فى عوالم المثال ، أو بكل دراساته واستقصاءاته النقدية لعالم الواقع ، لا يخرج فى النهاية عن نطاق الرؤى والأحلام والتمنيات ، وان تأثيره ليقتصر – فى أحسن حالاته – على ايقاد الشوق الغامض الى « ما يجب أن يكون » ، ثم يترك بعد ذلك للطاقة « الديناميكية » لهذه القوى الاجتماعية ، مهمة البلورة

والترسيب التدريجي واكساب الفكرة الأيديولوچية صفة المؤثر التاريخى، على شرط أن تستهوى الجماهير وتملك قياد فكرهم ..

اذن لا تقع الأحداث الاجتماعية، التى تعكسها القوى المشار اليها، بمجرد أن مفكرا أو جماعة من المفكرين قالوا بها، أو صوروها وشكلوها، قالبا ومضمونا، فى كتاباتهم .. بل هى تقع لأن القديم الذى شاخ، بسائر نظمه وأوضاعه، احتضن جديدا ظل يترعرع ويقوى فى ظله، الى أن أصبح تنحى القديم لهذا الجديد ضرورة يحسها ويتمثلها الضمير الجمعى للأمة، وتندفع القوى الشعبية برمتها، تحت ثقل هذه الضرورة الدافع، لتتحالف وهذه العناصر الجديدة النامية، وتنصرها على القديم الذى لم يعد يتفق مع منطق التحول الجديد .

ومن الأدلة التى تساق على أن الفكر وحده، بكل سلطانه، ليست له « فعالية » مباشرة فى خلق هذه القوى الاجتماعية من العدم، ما ثبت من أن المفكر، اذ يفكر، قلما يتخلل تفكيره عامل الوعى أو الادراك لما يعمل، وهو لا يستشعر، بادىء ذى بدء، أثر هذا التفكير من الناحيتين الاجتماعية والتاريخية (١) . ومن هنا فاننا كثيرا ما نجد فى المفكر ــ أديبا أو شاعرا أو مصلحا اجتماعيا أو فيلسوفا ــ مزيجا من التفكير الخيالى (اليوتوبى) يدور حول « ما يجب أن يكون » اطلاقا، ومن التفكير الواقعى، نسبيا، حول « ما يمكن أن يكون »، وبهذا نراه يخدم القديم والجديد معا، دون أن يدرى، لأنه هو نفسه محكوم بفعل هذه القوى الاجتماعية التى يعيش متفاعلا معها، ككل الناس والأوضاع فى مجتمعه، وان حاول ــ أو تخيل ــ أنه قادر على خلقها أو التحكم فيها ؛ انه قادر فقط على أن يساعد بعضها على التخمر السريع، أو الكشف عن وجود بعضها الآخر وتخلية الطريق أمامه لتقوى فعاليته ويشتد تأثيره .

على ضوء هذا كله، نستطيع أن نستعرض حقيقة الدور الأيديولوچى والاصلاحى الذى لعبه الفكر الأوروبى فى ظل عصر الاستنارة، ذلك العصر الذى اصطلحوا على أن يطلقوا عليه اسم قرن النور ..

وهنا يجمل بنا، بادىء ذى بدء، ألا نغفل حقيقة أخرى تعطى للفكر الأيديولوچى قيمته الخاصة به، ووزنه

---

(١) فقد تتجه هذه القوى اتجاها مغايرا تماما للاتجاه الذى قصد اليه المفكر الايديولوچى حين نادى بها .

النسبى فى تكييف مشاعر الجماهير حيال أوضاعها المستقبلة ؛ فهذا الفكر ان سلمنا جدلا بأنه لا يخلق القوى الاجتماعية التى توجد تلقائيا بوجود المجتمع فى أى صورة له ، الا أنه ، فى ذاته ، عامل من عوامل التطوير والتوجيه لهذه القوى ، لما ثبت من أن تفكير المفكر الأيديولوچى قد يكون غير صحيح كل الصحة ، من حيث الحقيقة التاريخية أو الاجتماعية أو العلمية ، ثم لا يمنعه ذلك من أن يؤثر تأثيره اذا استطاع أن يتناول نفسية الجماهير ، ويحركها فى فترة من فترات حياتها . المهم اذن فى قيمة الفكر — بصفته واحدا من عديد المؤثرات التاريخية المتفاعلة — هو أن تقبله الجماهير كما قلنا ، وأن تنفعل به عقليا ولاشعوريا . .

على هذا الأساس نقول ان الفكر الفلسفى الأوروبى عامة ، والفكر الأيديولوچى الفرنسى على وجه الخصوص ، كانا بمثابة التمهيد التاريخى الحاسم للثورة الفرنسية الكبرى ، بفضل تكييفهما لاتجاهات ومسالك القوى الاجتماعية فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر ؛ فقد كانت أفكار توماس پين وچورچ واشنطون وتوماس چيفرسون وبنيامين فرنكلين وولفجانج جيته وادموند بيرك ولوك وهوبز وداڤيد هيوم والبارون هولباخ المجرى والمفكر هلڤتيوس من ناحية ، ثم ڤولتير ومونتسكيو وديدرو وچان چاك روسو من ناحية أخرى ، بمثابة المعاول الرهيبة التى لعبت أعظم دور وأخطره فى القضاء على الأبنية الشامخة فى تربة الغرب السياسية والاقتصادية ، بقصد تمهيد هذه التربة وتطويعها للقيم الانقلابية الجديدة التى استهوت مشاعر الجماهير وهيأتها من بعد لقبول انقلاب شامل فى كل مرافق حياتها !

لقد كان ثم دور عقلى ضخم ، اذن ، سبق الثورة الفرنسية الكبرى ، لعبه الفكر الأوروبى كله فى بعض مراحل القرن السابع عشر ، ثم فى خلال القرن الثامن عشر ، والواقع بلغ النضج العقلى ، فى شتى مجالاته ، فى غضون القرن الثامن عشر حدا جعل من حق هذا القرن أن يتفرد بخصائص واتجاهات عقلية فذة ، خلعت عليه لقب « عصر الاستنارة » .

ولسنا نريد ها هنا أن نرجع ، فى تتبعنا لأصول وخطوط هذه الحركة العقلية الضخمة ، الى مظانها الأولى فى القرون السابقة التى أعقبت سقوط القسطنطينية عام ١٤٥٣ ، لنحدد مثلا تأثير الكشوف الجغرافية الكبرى فى

القرن الخامس عشر ، أو تأثير حركة « الرينسانس » فى القرن السادس عشر ، أو حركة الأصلاح الدينى التى نادى بها « مارتن لوثر حين بلغ الصراع الزمنى بين البابوية والامبراطورية ذروته – لا نريد فى هذه العجالة المحدودة النطاق والهدف الى شىء من هذا كله ، اذ حسبنا أن نذكر ، أو نسجل ، أن هذه المعالم الضخمة فى التاريخ الحضارى الحديث ، شجعت الى أبعد حد ممكن على روح البحث المستقل ، ووطدت الثقة بالعقل ، وأسفرت عن تغيير عميق فى نظر الانسان الى نفسه ، والى محيطه الأرضى الذى يعيش ويعايش غيره فيه ..

لقد بدأت البواكير الأولى للانقلاب الصناعى فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر تهب على أوروبا الغربية من ناحية الجزر الانجليزية ، وغمرت أسواق أوروبا ، فى الريف والمدن على السواء ، تلك الآلات الجديدة التى تدار باليد وبالجياد ، ثم بالبخار فى بداية محاولات العلماء وقتئذ لتسخيره كقوة محركة .. وهيأت هذه «الآلية» الجديدة لانقلاب جديد فى نظام الانتاج ، وهذا هيأ بدوره لتبدل ملحوظ فى الأوضاع الاقتصادية ، تطلب هو الآخر تنظيما اجتماعيا ملائما، ومن ثم أحست الشعوب الأوروبية أنها فى حاجة ماسة الى تراث فكرى جديد يستطيع أن يعلل أو يفلسف لها هذه التغيرات الجديدة ، ويهديها تبعا لذلك الى قيم وأهداف جديدة فى حياتها ، بعد أن شاخت وتهافتت القيم التقليدية التى ورثتها عن مجتمع العصور الوسطى ..

كان فى طليعة هذه القيم الجديدة مبدأ الايمان بالانسان (Humanism) وهو المبدأ القائل « ان الانسان يقوى بالانسان » ؛ فالانسان كما هو وسيلة، هو فى ذات الوقت هدف وغاية . لقد يسر هذا المبدأ ايمان الانسان بالانسان، ثم ايمانه بامكانياته وطاقاته التى لاتحد، فقد جعل الفرد يؤمن بأن لديه من العلم وسائل كثيرة تشد من أزره وتقوى سلطانه على الطبيعة المحيطة به ، وبهذا استعاد ثقته فى نفسه بعد تلك الصدمة المروعة التى منى بها على أثر اكتشاف « كوبرنيكس » لنظرية دوران الأرض حول الشمس ، وبعد أن صرح غاليليو ،عقب اختراعه لمنظاره المقرب ، بأن الأرض – هذا الجرم الصغير الحقير السابح فى فضاء اللانهاية – ليس كما توهمت فلسفة المدرسيين مركز الكون !.

فماذا كان من أثر هذا الفهم الجديد للانسان ؟ كان من أهم آثاره ، أولا شعور الفرد الذاتى بمدى تأثيره وتأثير الوسائل التى يستطيع استنباطها واستخدامها فى محيطه ، وثانيا أزدياد اهتمام الانسان بالانسان فى مطلع العصور الحديثة ، وهذا أدى بدوره الى الاهتمام الجدى بمسألة الاجتماع . ومن وقتئذ بات المفكرون الأوروبيون مشغولين ، الى حد الاستغراق، بدراسة المجتمع،ودراسة المجتمع دراسة منهجية قادتهم الى دراسة الدولة والسياسة . وكان رائدهم فى هذه الدراسات كلها ، فكرة رئيسية هى أن المجتمع الصالح (وبالتالى الدولة الصالحة والسياسة الصالحة) هو الذى يكون فيه الناس جميعا وسائل وغايات بعضهم لبعض ، وهكذا استبان للفكر الأوروبى بوجه عام وللفكر الفرنسى بوجه خاص ، فى غضون القرن الثامن عشر ، أمر جوهرى غدا أساسا من أهم أسس الاجتماع ، ذلك هو أن التقييم الصحيح للانسان انما يتحقق بالتقييم السليم العادل لوضعه فى المجتمع ، وهذا يتطلب اثبات ما له من حقوق على المجتمع ، هذا المجتمع الذى يطالبه فى ظل فيض من القوانين والقيود بعديد من الواجبات والتبعات قد لاتبررها حتى طبائع الأشياء فى هذا المجتمع نفسه !

ومن طرف هذا الخيط الذهبى أمسك المفكرون الفرنسيون فى القرن الثامن عشر بالبداية المنطقية التى يمثلها لهم ، وعلى هذا الأساس اتجه هؤلاء المفكرون الى العقل يصقلونه ويتسلحون به .. وتوالت من يومئذ صور الجراة الفكرية تهز المعاقل التقليدية للسلطة السياسية الغاشمة فى المجتمع الفرنسى ، بل فى المجتمع الأوروبى بوجه عام ..

* * *

ان الفكر الأيديولوجى فى ذلك القرن (أى الثامن عشر) لا يتصور عقلا أن يبدأ الانقلاب الصناعى غزواته الجريئة ، أو أن تبدأ مدارس الفكر الاقتصادى الحديث ، كمدرسة الحرية الاقتصادية التى تعارض مدرسة « الفيزيوقراط » بث تعاليمها ، ثم يظل المجتمع مع ذلك جامدا فى ظل قوالبه وأوضاعه التى ورثها عن القرون الماضية ، حين كان الملك أو الامبراطور فى العاصمة ، والأمير الاقطاعى فى المقاطعة ، هما كل شىء ، ومصدر كل السلطات الزمنية والأخلاقية والتشريعية لسائر الطبقات .. ان هذا

الفكر التأملي المتحرر يتصور أن تنعكس الآية ، ويحدث ما هو نقيض ذلك تماما .

ففى فرنسا ، وهى الدولة التى تبلورت فيها « ايديولوچية » عصر الاستنارة أكثر من أى دولة أوروبية أخرى ، نجد « الأنسيكلوبيذيين » ، وعلى رأسهم ديدرو ، يحاولون انارة الظلمات أمام طريق « المستقبلية » البورچوازية بوصفها النظام المأمول ، وقتئذ ، لاعادة الموازين الى مجتمع بلغ فيه الاختلال السياسى والاقتصادى أقصى مداه . وقد بنى ديدرو « مذهبه » الفكرى على العقل . ويتلخص هذا المذهب ، المتأثر بنفحات قوية من العقلية الأنجليزية الأكثر تطورا وتحررا ، فى الأقانيم الثلاثة الآتية :

(أ) ملاحظة الطبيعة .
(ب) التأمل .
(ج) التجربة .

فملاحظة الطبيعة تلتقط الحقائق والمظاهر حيثما اتفق ، والتأمل يوفق بينها ، والتجربة تصدر حكما على النتيجة .. ويعد هذا المذهب ، عند البعض، تمهيدا قويا للفلسفة الوضعية التى نماها فيما بعد أوجست كونت ، ولكنه أيضا تمهيد مباشر لمبدأ تقديس العقل ، ونعته بالكائن الأعظم ؛ وهى العبادة التى حمل لواءها الزعيم الثورى مكسميليان روبسبيير ابان عهد الأرهاب .

واذا كان ديدرو عميق الشعور بطبيعة عصره الانقلابية ، وخاصة فيما يتعلق بالعلوم ، فان مونتسكيو صاحب « روح الشرائع » يعد الدعامة الثانية الضخمة ، فى فرنسا ، لعصر الاستنارة بفضل نظريته التى ترجح وتغلب أثر العامل الجغرافى والعامل التاريخي فى التطور بالتشريعات والأوضاع والنظم . وقد نظر مونتسكيو ، هو الآخر ، الى التاريخ نظرة عقلية وحاول أن يكتشف فيه عوامل أساسية تجعل من حوادثه وأحداثه ظاهرات مفهومة .. ورد عمليات النشاط الاجتماعى ، ومحصلاتها ، الى عوامل بشرية وبيئية ؛ كما رد الى العقل الانسانى الشرائع والقوانين ، بوصفها ظاهرة تاريخية بحتة . وفى هذا يقول فى كتابه المشار اليه : « القانون ، بوجه عام ، هو العقل البشرى ما دام العقل هو الذى يحكم شعوب الأرض جميعا . والقوانين السياسية والمدنية — فيما يتعلق بكل أمة — يجب الا تكون الا الحالات الخاصة التى يقع فيها تطبيق العقل البشرى » .

واذا كان مونتسكيو حين عرف

« الحرية » بأنها الخضوع للقانون الكامل ، قد نسى ذلك العنصر الأساسى الذى لا تستقيم الحرية بدونه ، وهو ضرورة اشتراك الذين يطيعون القوانين فى وضعها ، فان فولتير وروسو بكتاباتهما فى هذا الموضوع سدا هذه الثغرة فى صراحة وجرأة . على أن فولتير أميل الى الحكومة الدستورية فى ظل نظام فرنسا التقليدى ، كمونتسكيو . . فى حين أبت على روسو عاطفيته الثائرة الا أن يحور من الأساس الفلسفى لنظرية العقد الاجتماعى تحويرا أساسيا يستطيع أن يبرر به مذهبه فى الخروج على أوضاع الحضارة والنظم البالية للمجتمع المدنى ؛ وهو يخالف « لوك » فى نظريته السياسية ، ليتبنى بتفكيره الخاص فكرة « الجمهورية الفاضلة » التى تستمد قداستها من قداسة الحقوق الطبيعية للانسان ؛ ذلك أن الانسان فى رأى روسو ذو فطرة خيرة صالحة ، ما دام يحيا فى ظل أمه الطبيعة ، ولكنه حين حاد عن الحالة الطبيعية ، لحقه الانحطاط على حد قوله . ولما كان الرجوع بالتاريخ القهقرى الى حالة الفطرة ضربا من المستحيل المادى والاجتماعى ، فقد ارتضى هذا الانسان بدافع من ضرورات العيش المدنى ، أن ينزل عن جزء من حريته ليستمتع فى ظل ارادة عامة هى ارادة الأكثرية تقريبا ، بالجزء الباقى . وروسو يؤمن أن الارادة العامة يمكن أن تصلح بصلاح الأكثرية التى تمثلها ، وهذه الأكثرية تصلح بالتربية الاجتماعية والسياسية السليمة ، ومن هنا عرف روسو باهتمامه بالتربية . .

نخلص مما تقدم الى أن الفكر الأوروبى ، وخاصة فى فرنسا قد لعب دورا ضخما فى ظل عصر الاستنارة ، وجوهر هذا الدور هو محاولة الاعتراف بحقائق رئيسية ثلاث :

أولا : حقيقة التطور التاريخى فى ظل الحقائق الطبيعية والكشوف العلمية المتعاقبة .

ثانيا : حقيقة الدور الرئيسى الذى يلعبه العقل الانسانى فى الاهتداء الى الحقائق ، وفى استنباط وتقنين النظم والشرائع ، ومساعدة القوى الاجتماعية على الحركة .

ثالثا : حقيقة الفهم « الوضعى » لقيمة الانسان فى المجتمع ، وهى الحقيقة التى توجب عليه أن ينصرف عما وراء الطبيعة الى الطبيعة ذاتها ، وعن التفكير المجرد فى عوالم غير منظورة

الى التفكير الواقعي فى المجتمع والدولة والنظم السياسية التى تحقق له حالة التكيف وتساعده على التطور بأنماء كل طاقاته وامكانياته ..

وبفضل هذه الحقائق الكبرى التى تعد معلما تاريخيا خطيرا فى حضارة الانسان الحديثة ، شبت ، ولا تزال تشب ، الثورات التحريرية الكبرى ، التى لن تنتهى من هذا العالم الا بانتهاء كل أثر للسيطرة الاستبدادية الغاشمة، سواء أكانت فى يد الفــرد أو فى يد الجماعة .

المرأة الصينية والمساحيق

جلست مرة أتحــدث الى السيدة (كونج بانت) مديرة الاستعلامات بوزارة الخارجية فقلت لها :

ــ لماذا لا تضعين المساحيق على وجهك كجميع سيدات العــالم ؟

فقالت : ليس عندى وقت أضيعه امام المرآة لأضع هذه المساحيق !

فقلت : الا يغضب زوجك من هذا ؟

فقالت : ليس لزوجى اى شأن فى هذا الأمر وانا حرة فى نفسى .

فقلت : ولكن هــذه المساحيق تزيد عادة من فتنة المراة وجمالهــا .

فقالت : ان سحر المرأة لا يزول بزوال الأصباغ .

وابتسمت السـيدة كونج بانت وهى تقول : قد تجــد السيدات فى الصين أقرب الى الرجال منهن الى النساء ، وهذا يرجع الى أن الدولة فى حاجة الى هذه الرجولة اكثر من حاجتها الى السحر والفتنة التى تتحدث عنها ولا تنس أن المرأة الصينية قد تعرضت فى الأيام الماضية لظلم الاستعمار وتحكم الراسماليين واستعباد الرجل الصيني ، وقد آن الأوان أن تستعيد مكانتها فى الصفوف الجديرة بها ، ثم استطردت تقول : واذا عدت الى الصين بعد ١٥ سنة ، فقد تجد النساء فى الصــين يستعملن المساحيق ويرتدين أزياء النساء الملونة المزركشة !

من كتاب (العملاق الأصفر)
تأليف « على حمدى الجمال »

افكار وخواطر عن بوذا والبوذية

خلاصة مقال للشاعر الهندي الكبير "رابندرانات تاجور"

نشرته مجلة (اندو ايشيان كلتشر)

في ليلة يوم « ڤايساكا » ، وكان القمر قد اكتمل بدرا ، جئت لأشارك بشخصي في الاحتفالات الكبرى التي أقيمت لذكرى ميلاد « الأله » بوذا ، ولأحني هامتي اجلالا وتوقيرا لذلك الذي طالما أحسست ، في أعمق أعماقي ، أنه أعظم كائن ولد على ظهر هذه الأرض !

ولم يكن مجيئي في تلك الليلة من قبيل « المظاهرة الرسمية » بالعبادة له ، المظاهرة التي أنبتتها الصدفة لتوافق هذه المناسبة العظيمة ، فأنا أقدم له هنا ، اليوم ، كما قدمت له مرارا من قبل ، اجلالا ورعاية » حقيقيين ، صادرين من قرارة نفسي ، بل من أخص مكامن السر فيها ..

لقد ذهبت مرة لزيارة المعبد الكبير في « بود ـ جايا » Bodh-Gaya وهزني حقا أن أفكر في أن ذلك الذي قدس الأرض بلمسته العلوية ، حين وطأتها قدمه أول مرة ، قد جاء ، فعلا ، الى هذا المكان يوما ، متجليا في صورته



اشتهر بوذا بأنه رسول رأفة ورحمة حتى بالنسبة للحيوان ؟ وهذه اللوحة تمثله وقد أنست اليه الخراف والحملان التي جاء لتخليصها من الذبح كما جاء لتخليص روح الانسان . وهي من رسم الفنان الهندي القديم ناندال بوز .

الآدمية ، صورة الدم واللحم ، التى يشاركنا بها .. نحن الأحياء !

بل لقد فكرت جادا ، أننى حتى لو لم أولد فى يوم وافق ليلة الاحتفال بمولده ، لما فاتنى مع ذلك أن أتلقى نفحاته القدسية ، تلقيا مباشرا ، لتغمر كل عقلى وروحى وجسمى ! .

وفى الوقت نفسه ، خطر على ذهنى خاطر ، جعلنى أرى أن الحاضر الذى نحياه ، أعنى هذا الحاضر المباشر ، محدود الى أقصى حد فى حجمه وفى مدلوله ، انه حاضر يغشاه ، رغم قربه منا ، الغموض الذى يثيره فى آفاقه غبار الأحداث المعاصرة .

ولقد أثبت التاريخ مرارا أن قربنا من الزمن ، أو بمعنى آخر ، قرب المسافة الزمنية ــ التى نحاول أن نؤرخها ــ من وجودنا ، كثيرا ما يطمس على أبصارنا ويضللها ، حتى لنعجز تماما عن ادراك العظمة الحقيقية لهؤلاء الأماجد العظماء الذين يعيشون بيننا وعلى مرمى البصر منا ! .

كم مرة أوذى بوذا فى حياته ، وكم مرة أسىء اليه بعداوات تلك العقول السخيفة ، الضحلة الأفق ، التى عاصرته ، وكم مرة أشاعوا السوء والأراجيف عنه ، محاولين التقليل من شأنه ، والغض من بهاء عظمته ذات الألهام ..

ان العشرات ، بل المئات ، ممن عاصروه وعايشوه ، وكانوا قريبين الى أبعد حد منه ، ما كانوا قادرين على أن يحسوا يوما تلك المسافة الهائلة التى تفصل مع ذلك بينه وبينهم فى الروح ، فظلت قدسيته الرفيعة ، حتى زايل هذا العالم ، غير معروفة ولا مميزة أولئك المعاصرين قصار النظر ! أما أنا ، فلم يقدر لى أن أتلمح عظمته ، وأستجلى خصائص هذه القدسية المحلقة من خلال غبار الأحداث التى تمر بنا كل يوم .

فأنا أوقن أن عظمة أعظم الرجال ، من قادة الانسانية وهداتها ، تحتل مكانها فى عالم الخلود ، فى ذات اللحظة التى يولدون فيها . ومن هذه اللحظة التى ترقم تاريخ مولدهم فى دنيانا ، تمتد عظمتهم هذه الى الوراء أجيالا بعيدة ، كما تمتد الى الأمام ، موغلة فى أحشاء المستقبل آمادا بعد آماد ..

حقا ، أيقنت هذه الحقيقة فى ذلك اليوم الذى زرت فيه المعبد الكبير فى « بود ــ جايا » ، وهنالك رأيت صيادا فقيرا ، جاء الى هذا المكان ، عابرا اليه

البحار القصية من وطنه اليابان ، ليكفر عن بعض مساوىء قد يكون اقترفها فى حياته • ومرت ساعات المساء بطيئة ، وهى توغل فى صمتها وسكينتها الى منتصف الليل ، ومع ذلك ظل صاحبنا الصياد جالسا فى تهجد وخشوع ، وقد طوى ذراعيه فوق صدره ، يردد فى همس مركز عميق : « بودام سارانام جاتشامى » أى : « فيك يا مولاى بوذا ألتمس الملجأ والحمى » ••

لقد مرت عدة قرون ، منذ ترك الأمير «Sakya» قصره وأسرته ، وامارته ، وسار فى الليل الموحش الصامت الى حيث يقوده روحه الكبير الذى يعتمل بين جنبيه •• لقد ألهمه هذا الروح الكبير أن يكافح ما بقى من حياته ليحرر الناس من الحزن والهم والكآبة ، وثم أمامى ، فى تلك الليلة التى زرت فيها المعبد الكبير ، كان شاخصالعيانى ذلك « الحاج » اليابانى الذى قطع البحار والقفار الى حيث هذا الحرم القدسى ، يصلى له فى رحابه ، كى يخلصه مولاه من ثقل الهم المتخلف عن ندمه من أجل الخطيئة ، ويعيد الى نفسه السكينة ، والى سريرته برد السلام والطمأنينة ••

وألهمت روحى تلك الليلة أن تعرف وتحس آية من آيات بوذا الكبرى فقد كان بوذا أقرب ما يكون الى هذا اليابانى البسيط المنسحق الروح استغفارا وندما •• كان أدنى الى هذا اليابانى وأصدق وجودا ليلتئذ من كل حقائق الأرض التى تستطيع حواسه أن تستوعبها !

لقد كانت روح بوذا التى لا تموت ، حاضرة تعمر كل حنايا معبده ، وتتجلى الهاماتها بالرضا وسكينة الغفران لهذا النادم الذى يستهلك مشاعره فى تمتمة عميقة متواصلة ، تطلعا الى نعمة الخلاص •• ففى غمرة ذلك الأشعاع الروحى الوامض بالعزاء والرحمة ، كان هذا الخاطىء المسكين يرى بعين بصيرته المتفتحة رويدا رويدا للنور العلوى ، هذه الذات القدسية ، هذا الانسان الأسمى ، مصدر هذا النور وذاك البهاء ••

فلو أن بوذا ظهر لمعاصريه فى صورة الملك القوى الشارة والصولجان أو فى صورة القائد العسكرى المظفر الأعلام فى معامع القتال ، لكان قادرا أن يؤثر بسهولة فى أبناء عصره ، ولظفر بتكريمهم وتمجيدهم • ولكن هذا التكريم أو التشريف ، على قدر ما قد يكون فى العادة غامرا أو وسخيا سرعان ما كان يتبدد ، ويجر عليه

النسيان ذيوله ويكفنته مر الزمن بأكفان لا بعث له منها ٠٠ وقد يكون رعاياه ، وقتئذ ، مأخوذين بسلطانه وأبهته ، مبهوري الوعي بطائل ثرائه ، وقد يكون الضعفاء من رعاياه أولئك ، مسحورين بقوته ، وبقدرته القادرة ، ولكن هذا كله عرض وقتى مآله الزوال وفجر سطحى مزركش ، لا يوحى بأدنى عمق وراءه .. ثم تبقى ، بعد هذا «المجد» الزائف كله ، حقيقة خلقت لتبقى ، لتمتد بامتداد الزمن ، تلك هي سعى الانسان القوى الروح ليخلص غيره من ضعفاء الروح ، وليهيىء لهم سبيل الخلاص والكمال . وتجاوز هذه الحقيقية فى عظمتها وبقائها ، حقيقة أخرى ، تلك هى حقيقة ذلك الانسان الذى يسعى بدوره الى تخليص روحه من وقر الخطيئة ، واكسابها صفة الكمال ما استطاع ٠٠ ان مثل هذا الانسان هو وحده القادر على أن يعترف بقدر « الانسان الأسمى » ، الانسان العلوى الذى يزول بهاء كل شيء أرضى ويمحى ، ولا يبقى ثم الا بهاؤه مشعا متلألئا عبر العصور والأجيال ٠٠

هذا تعليل واقعى بسيط لمجد هذا الانسان الأسمى : بوذا ، وايضاح لسر تربعه على عرش النفوس والقلوب الى اليوم ، وكشف لا تعمل فيه للسبب الذى من أجله استطاع جلال هذا الروح الأعظم أن يعبر الينا كل هذه العصور دون أن يستطيع مر الزمن أن يكشف وميضه بل لألاءه ، فكما أمتد فى الماضى أجيالا طويلة ، سيظل ممتدا فى المستقبل القادم المجهول أجيالا بعد أجيال ٠٠

حقا ان عظمة من هذا المستوى ومن هذا الطراز لا تعرف قيود الزمن ، ولا تعترف بالحدود بين الماضي والحاضر والمستقبل ! انها عظمة تستمر عظيمة من تلقاء نفسها ، لا عظيمة من أحكام معاصريها عليها ، فالمعاصرون ، بكل أحكامهم وأسباب دنياهم التى يسوقونها للتكريم والتمجيد ، يزولون ويبقى شيء واحد ، هو عظمة العظيم الذى استمد عظمته من سبب خارج عن كل هذه الأسباب الدنيوية التى خلقت لتفنى وتزول ٠٠

ان الانسان يكافح من أجل الكمال ، كمال روحه الانسانى ٠ ان هذا الروح هو وحده الذى فى مقدوره أن يعترف بالرجل الأسمى ، ويحفظ له جلاله عبر العصور ٠ ان الزمن يفنى بأجياله وقرونه ، ولا تفنى روح انسان عظيم ! ولعل فى هذا سر امتلاك بوذا لناصية القلوب والمشاعر في كل عصر وفى كل جيل ، وفى كل مكان ٠٠ ان

الجميع يردون ساحته القدسية ويحجون الى رحابه العلوية ، معذبين بما يؤودجوانحهم من مشاعر وانفعالات واعتلاجات شتى ، شاعرين والألم يحز في نفوسهم بمدى نقصهم ازاء هذا الكمال ، ولا تزال تمضهم ذكرى ما قارفوه من مشاين ونقائص فى حياتهم الدنيا ، فهم أمام هذه الحضرة الجليلة السمحة ، يهمسون من أعماقهم الجريحة : اننا نبحث عن ملاذ وحمى ، وطمأنينة ، فيك يا بوذا ، أنت أيها الروح الأعظم الذى وسعت سماحته واستنارته كل آلام البشر ، فى كل العصور ..

ان الانسان بهذا البث الضارع المخلص ، وهذا الابتهال الوجيع ، المتفائل ، يؤكد عظمة نفسه المتواضعة وسمو روحه ذات الجوهر الشفاف الباحث فى لحظات الاستشراق و « الومضات » ، عما وراء « الأرضى » و « الدنيوى » من حقائق والهامات .. بل هو بهذا كله يؤكد ذاته الشاعرة الواعية ، ذاته العليا ، خلال الزمن ، و فى هذا ابراز وتجلية لحقيقة النفس البشرية فى صورة هى أروع صور « التكشف » البشرى وأصدقها .

ان الناس العاديين أمثالنا ، يعبرون عن أنفسهم عن طريق تلك العلاقات المتشابكة التى يعقدونها بينهم وبين الناس ، فنحن نعرف مثلا بالطبقة الاجتماعية ، أو بالجنس ، أو بالمجتمع الذى ننتسب اليه . ولكن قليلون هم الذين ولدوا على الأرض ليضيئوا من تلقاء أنفسهم كأنهم النجوم المشعة فى أجواز « اللانهاية » ، ان نورهم ليس مستمدا من غيرهم ، ولاجلالهم مقتبسا من جلال « مواضعات » مصطنعة تبهت بها فكرة الحياة ، بل هم فى مكانتهم الرفيعة المحلقة ، يدلون على أنفسهم بأنفسهم بفضل ما ينبلج من خلال « ذاتهم » من أنوار الحق المبين .

اننا نرى جوانب من هذا التعبير الذاتى للانسان فى كثير من الناس الذين اشتهروا بحكمتهم و معارفهم ، أو بطولتهم ، أو حنكتهم السياسية ، هؤلاء الذين سادوا غيرهم بفضل ارادتهم المصممة ، وشكلوا التاريخ على الصورة التى رسمتها ارادتهم أو شاءتها رغباتهم ..

على أن التعبير الكامل للانسان لا يشاهد ، ولا يتمثل ، الا فيه هو نفسه ، اذ الانسان يمثل فى ذاته كل « الذوات » الانسانية ، فى كل الأمكنة وفى كل العصور . ان وعى الانسان ،

وادراكه العميق « الذاتى » لكيانه ، لا يحطمه أو تزلزل منـــه كل القيود والأسوار المألوفة ، المتمثلة فى السن والجنس والوطن واللغة ..

هذا الانسان يكشف عن ذات نفسه من خلال ايمانه بأن ثمـــة وراء هذا الوجود ، وداخل هذا الوجود ، بما فيها وجوده هو ، حقيقة . انها الحقيقة التى تتحدث عنها الأوبانيشاد فتقول : « ان الذى يعرف وحده الحقيقة ، هو الذى يعرف أن كل أفـــراد الجنس البشرى تماثله وتشاكله قواما وجوهرا وشعورا وفكرا ، انه الانسان الكامل اذن ، ذلك الذى يعرف الحقيقة على هذا النحو ، وفي حدود هذا المفهوم ، انه يضىء بنور الجلال والجمال اللذين يجلوان له « الانسانية » التى ينتمى اليها .

ان الأوباونيشاد تقول أيضا : ان ذلك الذى يرى نفسه فى الكل ويرى الكل فى نفســـه ، لا يمكن أن يظل شيئا مخفيا ، شيئا ملففا فى غموض أو عماء ..

انه يظل بين الحقيقةنيرها الى الأبد، واضح الطوية مشرقها فى الحياة وبعد الحياة ، ولو خفيت من حوله كل حقائق الوجود !! انه ليكفى أن تكشف حقيقته الواضحة حقائق الوجود الغامضة ـ فما وجود الكون بغيروجود الانسان ؟! انه ليكفى أن تريق الحقيقة الانسانية على الحقيقـــة الـــكونية من ضيائها ونورانيتها ما يبدد عنها كسف الظلام والقتام ، طورا بعد طور وجيلا بعد جيل ، فى طويل الأزمان والآباد !!

ولكن يا للأسف ، وانه لأسف ممض ملح ! ان هذا الضياء وهذا الاشراق يكاد يكسف من بهائهما الشفيف الملهم صنوف وصنوف لاعد لها من « كلبية » رخيصة تحسها فى محاشد الناس . انهم هم هم فى صراعهم الغـــريزى ونزاعهم البهيمى على غير طائل ! صراع ونزاع لا نهاية لهما ، ومن أجل ماذا ؟! من أجل أشياء ما أهونها بل ما أرخصها الا على الغريزة ، وما أكثرها ايحاشا ومضاضة على النفس وظلمة ، ولو كانت مضيئة لحواس الجسد .. ترى هل نستطيع أن نحسبه ضياء له معنى الضياء ، بجانب ذلك الضياء الباطنى الذى يهدى ويلهم لو أخلى له الطريق ، والذى يشف ويتصوف ويقوم ، لو أن هذه الاستار والسجف التى يصطنعها الجســـد فى « غريزيته » السخيفة البلهاء ، قد انجابت من طريق الانسان وامحت الى غير عودة ، لتصبح ارادة السمو والتفوق فيه « عملاقة » الى غير نهاية ؟!

غير أن معظم الناس فى أيامنا هذه ملففون فى حياتهم وفى مماتهم بأستار هذه الظلمة الأرضية ، تلاحقهم حتى مثواهم الأخير ، وقد تلاحقهم لا مراء الى ما بعد عالم الوجود الدنيوى ، أى عالم الشهادة ، حيث مملكة الحواس الضئيلة ، المحدودة السلطان الضحلة العرفان ، فى حساب هذه « الحقيقة » الانسانية المطلقة ! أن الحقيقة الانسانية تحاول ، رغم كثافة هذه الأستار والقيود ، أن تشعل أنبلاجاتها العلوية ، ذلك أننا نتلمح فى هذه الكثرة الكثيرة من خلق دنيانا ، أو من خلق أيامنا ، ملامح من اشراقة الروح وهى تحاول أن تقتدح ، فى أعماقها ذات الأسرار ، تلك الانبلاجات التى لا نفهمها الا بعد رياضة ومراس وتأمل وهداية ، لنستطيع أن نرى نفوذها النورانى من خلال الجثمان الكثيف القوام ، الترابى الأهواء والشهوات ، لتجعل من كل ذرة فيه تنسى أرضيتها وترابها ، لتضىء معها وتتوهج بحقائق ليست من معدن دنياها !!

ومع ذلك ، فهى ملامح قليلة قليلة ، انها ملامح تتوارى بجوار الملامح الحقيقية التى تخفى ، وراء صورة اللحم والدم ، حقيقة هذا الانسان الذى ما كان للوجود ولن يكون ، معنى أو مفهوم بغيره !

ولكن من ذا الذى يكشف هذه الحقائق الرفيعة ، رفعة لا تحد ؟ من ذا الذى يزيل عنها رتابة هذه الأصداء المدوية التى تبارك وتبرر حياة الغرائز ، الغرائز التى تريد أن تستأثر لنفسها بكل قيمة وبكل شىء ؟! من ذا الذى يكشف عن غموضها رويدا رويدا ، ويضع عليها كل بصيرة الانسان .. هذا الانسان الغافل أبدا عنها ؟!

انه انسان مستنير الى أقصى حدود التصور .. انسان مشرق اللألاء من تلقاء ذاته .. انسان من طراز بوذا ، ومن طبقته ..

* * *

ان الأرض حين كانت — فى بداية خلقها — مطوية المعالم فى أستار الضباب وفى بخار الماء المتكاثف بعضه فوق بعض ، لم تستطع أن تتكشف أو تتسامى من خلال هذا الطوفان الظلمانى الرهيب سوى قنن الجبال ذات المناكب الشماء ، تستشرف للنور والضياء ..

الانسان أيضا مثل مثل هذه المعالم الكونية حين كانت مغلفة فى غماء ، ان معظم الناس ملففون أيضا فى عماية شهواتهم وأغراضهم الترابية اللاصقة بأفكارهم لصوق أبدانهم بذواتهم ! ان الغرور والكبرياء والظلم والطمع

وشراهـــة البطن والحواس ، تغلف ضمائرهم بأســـتار وسجف كثيفة تواريها وتخنق صوتها كما لو كانت « عورة » من العورات يلزم سترها !

ومن هنـــــا تختفى الروح بكل نورانيتها ، ومعها تختفى كل حقيقة علوية تبتعث فينا حقيقة الانسان الذى جبل على صورة خالقة ، ولا يبقى ثم غير الصورة الجثمانية الكثيفة التى تجعلنا شركاء بالضرورة لبهيمة الانعام؛ شركاء لها فى معنى الخلق الناقص الذى لم يتكمل بمعرفة ، ولا انفعل بوهج نورانى له عمق سحيق يمتد الى ما وراء لحظتنا الراهنة آمادا سحيقة تذهلنا عن كياننـــا الترابى كله ، لنعير جزءا من عنايتنا لهذا العمق الجدير بالفكر الانسانى فى صورته الجليلة حقـــا ، صـــورته العظيمة عظمة هذا الكون كله ! ..

اننا حين نهتم بهذا العمق الجليل البعيد ، نصبح بدورنا قمما شامخة تعلو على كل عمايات وجودها الترابى كتلك القمم التى استشرفت للضياء ، ولسنى الآلهة ، فى بداية خلق الكون

ولا جدال فى أن الانســان مخلوق لا زال ناقصا مع الأسف ، على أن هذا الجزء الذى ينقص الانسان ، ولايكمل أو يستتم أبعاده الانسانية الحقة الا به ،يجب ألا يدعونا الى استشعار الألم والأسف الا حين نغض النظر عنه ، ونزور فى حمق عن قيمته وعن تأثيره الهائل فى مصير وجودنا ذاته .. ومع ذلك فنحن لا نستطيع ادراك حقيقة هذا النقص وبالتالى حقيقة الانسان الكامل الذى برىء من عيبه وخلص من شـــوهته ، الا حين نتلمس الــكمال والجمال فى انسان كملت له كل أبعاده الانسانية ، فأصبح طاقة مشعة ملهمة ، شفيفة الضياء الى الحد الذى ينير ، بل يذيب ، بوهج عجب ، كل حجب الصورة الأرضية الكثيفة ، ويجعلها وكأنها ليست هناك كالشرك الراصد تحبس بقضبان غلاظ رفرفات الروح المحلقة بجوهرهـــا الشفيف الى عالم « مثلها الاعلى » الذى صدرت عنه منذ أزل الوجود ..

اننا حين نشاهد هـــذا الانسان الكامل ، الانســـان الجميل الجليل « الالهى » الشـــارة ، وهو فى ذروة بهـــائه الأسنى نحس ، وقـــد أخذنا دوار العجب والأعجاب معا ، مدى الفارق المذهل بيننا وبينه ، بين أرضنا وسمائه .. ولكننا حقيقون مع ذلك أن نأتنس بكماله وجلاله ! ان هذا الأنس به ، يعظم ويستفيض ويملأ علينا كل جوانحنا كلما كان مدى الفارق بيننا وبينه عظيما وبعيدا ،

ذلك أننا نرى فى كماله وجلاله نهاية المطاف وغاية الأمد ، وعظمة الأمكانيات أمام صورنا الترابية الناقصة ، حين تلمسها الومضة العلوية فتستشرف لمصيرها العظيم الجليل ..

اننا سنعيش فى جلال هذا «الروح» الجليل ، هذا الانسان « الآلهى » ، مطمئنين هانئين ، نحلم بمصير سعيد .. مصير جدير بالانسان الذى هو لا مراء نائب الآلهة ورسولها على الأرض ..

هـكذا كان بوذا بكماله وجلاله بالنسـبة للائذين به يريدون أن يقبسوا من هـذا الكمال والجـلال ما يعوض نقصهم ، بل ما يذكرهم بأنهم صور ترابية تعسة لا سعادة لها ولا خلاص الا حين ترد ، ساعية فى حيرة الندم ونشوة الأمل ، حوض هذا المورد النورانى السائغ ، المبذول للجميع ، الفياض من أجل الجميع ، تتطهر به وتتزكى ، وتبكى ما شاء لها البكاء ، لتحس بالأوقار وقد خفت ، وبالأوزار وقد أخذت تذوب رواسـبها رويدا رويدا ، وبالجوهر الثمين ، الراقد تحت التراب الكثيف ، وقد بدأ ينبثق من أعماقه البعيدة ، ويستعيد نورانيته وشفافيته شيئا فشيئا . انها لسعادة من صنف نادر رائع ، سعادة تضؤل بجانبها كل سـعادات الحـواس فى مغامستها للأوضار الوضيعة ، الموقوتة المتعة ..

ترى لو كانت هذه النفوس مستكفية بغذائهـا الأرضى الذى يشـاكل « صورتها » الترابية ، فعلام سعيها اذن الى هـذه الرحاب المترقرقـة بأنوارها والهاماتها تبتغى عندها الغذاء الحق والسعادة الحقه ؟ .

هنا يقف المفكر المحايد وقفة اشراق وتأمل . ان هـذا المفكر حين يتأمل عظمة الصورة الانسانية وهى تبرز له فى رونق بهائها واشرافها ، ممثلة فى كائن منير مستنير ، متكامل الخلال مثل بوذا ، ليتعاظمه دعوى المنكرين للعظمة الانسانية تومض وتشع من خلال هذا الاشراق الروحى والفكرى معا . انها عظمة حقيقية لا زيف فيها ولاادعاء ، انها قد تبلغ مرتبة تنتفى عندها القيود والحدود ، حتى ليصبح معها « النسبى » مطلقـا ، والعاجز المريض « عملاقا » ، والمخلوق « خالقا » والأرضى الدنيوى « الاهيا » !

لقد أضـاء بوذا الهند بخـلاله واستنارته فأضاءت الهنـد العـالم الآسيوى بضيائها المستمد من ضياء هذه الاستنارة المحلقة أبدا وراء اسعاد الانسان ، واقالة عثار الانسان ، واقالة عثار الانسانية ، فهنـا مجد الأمجاد وسر الأسرار الذى يحاول أن يكشف عن نفسه بنفسه خلال الدهور ..

فأسعد ما يسعد الانسان أن يكون موفقا الى انبلاجة علوية تنقــدح فى أعماقه ،حين تمسها الشرارة المقدسة، شرارة هذا « الروح » العظيم المستنير المنير ، فيستضيء بدوره ويضيء .. وينسى أنه كائن ترابى عاجز ، محدود ، مسعور النهم الى متاع موقوت وشين مرقوب ! .

أصبحت الهنــد ، بفضل هذه الانبلاجة الخالقة ، أرض الحج والمعاد ، أرض الضيافة للجميع .. الأرض التى تذوب فوق صعيدها الزكى النعرات والعصــبيات ، ودعاوى الســـلالات والأجناس ..

وتمحى كل التخـــوم لتتــراحب وتتراحب أرض « الانســانية » فكرة ورموزا لا مساحة وبيئة جغرافية .. الانسانية معنى وضميرا وجنسا واحدا لا تتقسمه تارات واحن وعــداوات ومنافسات حاقدة ومفاخر كاذبة !

ان فيضان « الحقيقة » ، كما أعلنها بوذا من خلال روحه الكبير ، اكتسح فى مده العملاق كل هــذه الحــواجز والأسوار ، وسواها بالتراب ، لتنطلق رسالة الهند الى كل آفاق الدنيا حاملة معنى السلام والوفاق والحب والرحمة والأخوة لكل الشعوب .. لأن باطل الأباطيل أن تزعم أن الانسانية ما خلقت الا ليحكمها قانون التناحر ، قبل أن يهديها قانون الحب والرحمة !!

ان بوذا يعرف الانسانية ولا يعرف الأجناس والســـلالات ، يعرف العقل الانسانى الواحد الجوهر فى كل زمان ومكان ، ولا يعرف الفلسفات والأفكار الهادرة بدعاوى الأجناس والأوطان ، المصطبغة بصبغة « جنسية » مسرفة .

إن الصبغة الانسانية خلقت لتبقى وتزدهر وتلقح الأفكار والعقول بلقاح خالد لا يشيخ ؛ وكتب للصبغات غير الانسانية ، أيا كانت أوطانها ومصادرها أن تتهاوى فى ظلمات النسيان بعد أن يخبو وميضــها « الخلب » فى أفول سريع ، مثير للسخرية ! . انه يعرف أن الروح البشرية القــابلة للكمال والترقى واحــدة فى الهند ومنغوليا والتبت والصين واليـــابان وجزر المحيطات ، وأيضا فى أفريقيا ، وفى أوروبا وأمريكا ، حتى قبل أن تعرف الهند يوما أن هنالك وراء بحار الظلمات دنيا جــديدة .. ان بوذا يعــرف أن هذه الروح واحدة لا تتعدد أو تتشكل بتعدد القارات ، بدليل أن المحيطات الجليلة والقفــار الرهيبــة والجبال الشماء ، وكل مبتدعات الذكاء الانسانى فى محيط الأثرة والتباغض والأنانية ، لا تستطيع جميعا أن تقف فى وجه

صيحة واحدة لا تقاوم .. انها صيحة الأخوة الانسانية التى تستغرق فى رحابها ، كما بشر بوذا ، كل الأجناس والسلالات والعصبيات ، والأفكار والفلسفات !

ان هذا المعنى الكبير ، المعنى الذى نقل البشرية من محور الى محور وابتعد بالناس والأخلاق والشرائع من مفهوم ضيق الى مفهوم منطلق .. هذا المعنى ، استطاعت كل المواهب والنزعات الغنية ، التى تعبر عن روح ووجدان ، وتطلع دائم الى الجمال والخير والحق ، أن تجسمه فى كل أقطار الأرض التى زرتها ، وأن تجعله ينبض بالحياة والحركة ، والجمال والجلال فى عديد من بدائع المعمار والتصوير والنحت .. لقد شاهدت تعاليم بوذا تتجسد صورا دقيقة ملهمة ، محفورة على جدران الكهوف والغيران فى مجاهل منغوليا والتبت، كما شاهدت روائع النحت والتمثيل فى الصين واليابان ، وفى الصحارى القصية التى تسكنها « الغيلان » والأساطير ، تنطق الأحجار الصماء بارتعاشات « الروح » البوذية فتجسمت للناظرين فكرة حية ، رائعة روعة الأبد والأزل ! ..

انها روح هؤلاء الذين وجدوا شبع حواسهم الفنية ، وذروة كمالهم الانسانى ، فى بوذا هاديهم وآسيهم !

لقد أصبح الفنان المحدود الطاقة ، غير المصقول المواهب ، قادرا على أن يسمو فوق مستواه سموا بعيدا ، ليبلغ فى آية خلقه الفنى مرتبة الأعجاز الفائق الخارق ..

ومع ذلك ، وما أبلغ العبرة هنا ، أبت لهم آية التواضع الا أن تعكس على آية الفن طابعاً علويا لا يزول على الزمن مغزاه ، انه طابع ساطع خالد ، ذلك هو طابع الانسان الصادق الايمان بالانسانية .. الانسانية التى يحاول أن يستشفها من أعماقه المنيرة ليجلوها بكل « سنا » روحه فى أبهى سناها ، فانيا فيها ، خادما لها ، لا متحديا لها أو مستعليا عليها .. بحسبه أنه نقل الى الخلف ، الى الأجيال المطوية فى ضمير الغيب ، بسبيل من لغة الفن الخالدة ، لغة البشر جميعا ، معنى ذلك الفهم المستنير : —

« فى بوذا أجد ملاذى وملجئى . لأننى انسان ، عميق الأيمان بالانسانية » ..

* * *

ان عبادتهم الصادقة المؤمنة ، ويقينهم المطمئن الراسخ فى شخصية لا تكررها الطبيعة كثيرا ، وينقطع مثالها فى كثير من الأجيال ، هو دافعهم الأول الى

التعبير عن عمق هـذا الايمان وذاك اليقين فى نفوسهم ، وهو ملهمهم الأول لانتاج هذه الروائع الرائعة ، الروائع التى تبدو فى ظروف أخرى عادية ، معجزة المعجزات وخارقة الخوارق . ومع ذلك فان هذا الخلق الفنى الخارق لا يطيب لهم الا وهم متوارون فى غمرة التواضع والاتضاع ، فقد عبروا عن ذات أنفسهم وكفى ، وبلوروا اليقين فتجسد خارج نطاق ذواتهم الفانية ، ولا مزيد !

وهـذا منتهى الايمـان بالعظمة الانسانية الخالقة ، حين تبتدع بكمالها ووداعتها الجلائل والعظائم على مدى التاريخ ..

والحق ، ما أحوج هذا السيد الذى ألهم كل هذا الالهام ، وأراق فى الجوانح والقلوب كل هذا النور ، الى أن تثار ذكراه فى أيامنا هـذه ، أيامنا التى عكست للانسان ، الذى يشهد موجوع القلب مصرع « انسانيته » ، أعجب الرؤى : الباطل يلبس ثوب الحق واليقين مصورا فى صورة الباطل .. ما أحوج هذا الانسان العصرى الذى ما عاد انسانا ، الى أن يعود انسانا يؤمن بأنسـانيته ، عن طريق نير طاهر ، طريق عادل مستقيم ، هـو طريق « بوذا » ..

لقد غرقت الانسـانية فى حطام المتاع ، وجرها هذا الحطام الى ابتداع مذاهب الخلاف والتمييز والمفاضـلة والمنافرة .. ضلال يحمى الضلال ، وخداح « علمى » مزوق يقلب الحق باطلا والباطل حقا ، وما عاد بصفقة المغبون من هذا الرياء كله غير العلم ، ومعه الانسانية المسكينة ..

مذاهب تدعو الى اسـتغلال القوى للضعيف ، فيقودها لؤم الطبع وأفن الرأى الى أن تبتدع التبرير وتحتال الحيلة ، فتقول ان هناك جنسا خلق ليسود وجنسا هيئته الطبيعة ليكون وحده المسود والخادم ، بل المحـكوم أبدا لسادته ، المستسلم لقضائه الذى لا مفر منه استسلام النعاج الوادعة ؟!

فهناك نظريات « الملونين » ، وقوانين الاسـتعمار والمستعمرين ، هنـاك الفـوارق الدينيـة والاضطهادات المذهبية ، وثم بين هذا وذاك معارك الزحام الرخيـص والتكالب الوضيع على كل حلبة للانتهاز والافتراس ، حتى خضب النجيع القانى بسـائط الدنيا ، وغدا كل شىء نلمسه بأيدينا أو نتذوقه بحواسنا وأفكارنا ، حتى ما نأكله ونشربه أو ندركه ونعقله ، غارقا فى النجيع ملوثا بالدم الى أقصى قرار ..

الجوهر والأصل ، صراع حيوانى

شرير ، فى مختلف مظاهره وخوادعه وصوره ، أما حياة « الانسان » ، حياة الفكر الذى تميز به الانسان عن كل مخلوقات دنياه ، حياة الومضات والتجلى ، فهذا مطلب ثانوى ، مطلب مرجوح الكفة يجىء دائما فى المؤخرة !!

ان النعمة ، فى ظل هذا اللون النفسى السائد ، اللون الهائم بالأذلال والاستعباد والافتراس ، كثيرا ما تنقلب الى نقمة . فالثراء حين ينقلب الى فخر ومباهاة ، واذلال للآخرين ، لا يعود بعد ثراء ، بل فقرا وضياعا وامحالا ، والاستقلال السياسى نفسه حين يحتضن كنظام ومذهب ، نظما ومذاهب تنطوى على التعالى والسيادة الغاشمة ، والتحقير لأبناء الشعوب الأخرى ، وتجريدها من كرامة الآدمية ، جدير أن يكون « استعبادا » للشعب المستقل نفسه لا «استقلالا» يزهو به ؛ فجوهر الاستقلال كرامة الآدمية أولا ، جوهره أن يكون هو لكل شعب روحا لا مظهرا ، روحا تتغلغل فى أعماق نفسيته فتحرره فى أسلوب سياسته لنفسه الأمارة بالسوء ، قبل أن تحرره من السلطان السياسى للأظلم والأقوى ، أو من أسلوب ممارسته هو للسيادة والغلب على الآخرين .

من أجل هذا كله ظهر بوذا للوجود ! ظهر ليجعل من كل صنائع الاحسان والمعروف والبر ، لا مظهرا من مظاهر الأذلال والأدلال ، بل أصلا من أصول الحياة الانسانية تستعلى بالروح وبالتفكير ، وبالتأمل ، على شهواتها ونزغاتها التى سادت سيادة مطلقة على كل القيم ! .

إن أسلوبه الى هذا الهدف ، هو أسلوب تلقين « الاستنارة » لمن طمست الأنانية و « الظلمانية » كل ومضات الاستنارة فى أعماقهم ، فما عادت تعكس على عقولهم وضمائرهم الا ظلاما وقتاما ! .

جاء بوذا ليحطم باستنارته كل الحواجز التى أقامتها وتقيمها السياسات الضالة والأهواء الغاشمة بين الانسان وأخيه الانسان : السياسات والاهواء التى تزعم أن هذا آسيوى وذاك افريقى ، وثالث أوروبى وآخر أمريكى ، وهذا أسمر وذاك أصفر ، وآخر « ممتاز » بشقرة بشرته ونصاعة جلدته !! جاء ليخلص الانسانية بالتأمل والاستنارة من هذا الضلال كله .. الضلال الذى مزق الانسانية على العصور شر ممزق ، وجعل من أفراد جنسها . « الآدمى » الواحد خصوما ألداء و « آدميين » متناحرين على غير طائل ، مع أن هذه الدنيا مسكنهم الواحد !! .

انه يؤمن بشريعة واحدة هي شريعة الحب ، والحب عنده يعنى الرحمة ، والرحمة لا تكون رحمة الا حين تخلص هذا الانسان الذى انطمست في كيانه كل معالم الانسانية ، من غروره وكبريائه وهوانه على نفسه ، والا حين تعلمه كيف يسعى باستنارته الى خلاص نفسه بنفسه ، خلاصه من كل المغريات والدواعى التى تجر ، في معقباتها القريبة أو البعيدة ، الأسى والعذاب والندم ، وضياع الضمير والروح والعقل . ليزدهر الجسد وتتوهج غرائزه دون أن تزدهر مع الجسد ، ولو بنفس النسبة ، تلك « المعانى » التى تسكنه كما تسكنه الغرائز سواء ..

ان كل حضارة تنفي روابط النسب والقربى بين أفراد الجنس الانسانى الواحد ، وتحارب في غطرسة بلهاء وئامهم وتآلفهم ، هى حضارة « زواق » وتجسيد فحسب ، حضارة من الخارج وليست حضارة من الداخل .. حضارة « وهمية » تعيش على فتات الأشكال والظواهر ، وتنقل الانسان من تجسيد الى تجسيد ، حتى تحجر كيانه كله فى الأشكال والقوالب ، وتأخذ عليه آفاق الرفرفة والانطلاق ، وتظل هذه الأشكال والقوالب المزيفة تخدعه عن نفسه ، وتضله عن حقيقته ، حتى يهتدى الى هذه النفس ، والى هذه الحقيقة ، بقارعة من قوارع الضمير أو الندم ، أو الهوان ، أو الأسى والألم ، أو « الاستنارة » التلقائية . والاستنارة خير القوارع وأفضلها ، وأبقاها على الزمن . ان بوذا يطلب باستنارته حلمه الأعلى .. حلم « الانسان العالمى » الذى يعيش بنفسه لغيره فى كل الأوطان والأزمان قبل أن يعيش بغيره لنفسه فى وطن بعينه أو زمن بعينه ..

* * *

انها المأساة فى نظر الاستنارة التى حمل بوذا لواءها ، أن يغدو الانسان شر أعداء الانسان ! ولكن كيف أنقلب عدوا لنفسه ، خصيما لجنسه ، مخربا لوجوده ، مدمرا لأجمل معانى دنياه ؟

ان السبب فى هذا المصير الفاجع هو افتراق الانسان عن « الحقيقة » ، الحقيقية كما تفهمها الاستنارة البوذية ، لا أية فلسفة أخرى ، وافتراق الانسان عن هذه « الحقيقة » — حقيقة أنه « انسان » قبل كل شيء ؛ آدميته لها معنى يغاير كل معانى الحيوانية وصورها — غشى بالحلك والظلمة كل مسالكه ، وطمس صورة الانسانية

فيه الى حد بشع • وهـــذه هى علة ما نراه حتى اليوم ، فى جميع أنحاء العالم ، من الريبة المتبادلة ، والشك العاصف الذى يزلزل ثقة الانسان فى أجمل القيم ، بل علة الخوف المدمر الذى ينغص علينا هناءنا وسلامنا ، ويجعلنا أشقى ما نكون بحياتنا ، وعلة العداوات المرة التى تقوم بين الجنس والجنس ، بين الثقافة والثقافة ، بين المعتقد والمعتقد ، بين أسلوب «للفهم وأسلوب يناقضه » ، بين أبناء الأمة الواحدة .. بل حتى بين أبناء البيت الواحد ! ؟ .

« الأنا » الحيوانية هى كل شىء ، و « الغير » الانسانية هى لا شىء .. من أجل هـــذا ينصحنا بوذا ، لكى نكون « انسانيين » منسوبين لجنسنا الآدمى ، رأس الخليقـــة ، أن نظهر الانسان فى كياننا ، فنضىء بذاتنـــا ونستنير ، وبهـــذه الذات المضـــيئة المستنيرة يستضىء غيرنا ويستنير ..

ان بوذا لا يتركنـــا صرعى الحيرة والبلبلة والندم السلبى ، بل يتقـــدم ليأخذ بأيدينا ، ويدلنا على « الطريق السلـــطانى » ، طريق الوئام والحب والهنـــاء والرحمة ، فيقول : اقهروا الغضب بالحلم ، وامسحوا القســـوة بالرأفة ، وقابلوا الصـــدقة الواحدة بصدقات كثيرة ، وانسوا عدوان الغير عليكم بالنسيان والأحسان ، فالنسيان حـــكمة عميقة ، والاحســـان تغليب للانسان على الحيوان فى كياننا الفردى الموزع القوى ، وقد طـــالما اســـتعبد النسيان والاحسان أظلم الظالمين وأعتى العتاة • فاذا لم يكن بد من رد العدوان الغاشم الظالم ، فليكن هنـــاك كفاح « جماعى » أو حتى فردى ، من أجل سيادة النور ، نور الضمير على ظلمة الغريزة ، ان شعاعا واحدا من هذا النور « الانسانى » الاصيل ، يكفى لتبديد كثيف الظلام ، الظلام الموبق الذى يطبق على كل دنيانا ، ويلصقنا كالديدان بأرض أهوائنا ونزواتنا ..

ولكنه كفاح « انسانى » سلمى ، كفاح لا يستعدى القوة الغاشمة ، قوة الحيوان الراقد كالقضاء الراصد فى أعماق كل نفس أمارة بالســـوء ، فما أخذ السيف شيئا بطريق الغصب والقهر ، ولو كان حقـــا ، الا انقلب الحق ظلما وانعكست الآية ! ذلك أن النضال الحيوانى ليس أقوى ما فينا ولا أروع ما نحمله من قوى فى كياننا بل هو عماية عميـــاء ترد الانسان حيوانا كاسرا شاهت صورته والتبس عليه سبيله ، وزرع الشر والنقمة فى

طريقه ، وحصد سوءا وضلالا من حيث أراد أن يحصد خيرا وهداية ! .

هل تدرك الانسانية هذه البداهة المستنيرة ؟ هل يمكن أن تؤمن بهذه الهداية التى لا تكلفها شيئا غير أنانيتها وغرورها بعد أن جربت هذا الغرور وتلك الأنانيـــة دهورا طويلة ، فما كسبت غير الضياع والهوان ، والتعفن داخل جســـد يتعفن تلقائيا فى كل لحظة ؟

* * *

ولكن هل هذا معناه أن بوذا ينكر على الانسان الذى يريده ذا قلب يخفق بالحب ، وروح تزداد شفافية بالنور ، وطبيعة توقن أن الأصل الأول الذى انبثقت منه هو الخير لا الشر ، هل معنى ذلك أنه ينكر على الانسان كل نشاط وكل حركة ، لينعزل داخل « قمقم » الروح فى سلبية لا تؤثر ولا تتأثر ؟!

ان بوذا فى نصـــيحته لتلميـــذه « Simha » لا ينكر الا ذلك الضرب من النشاط المفضى الى مقارفة السوء والمعصية .. ان مجرد الكلمة السيئة ، أو الفكرة السيئة ، وان لم تتخذ فى عالم الوجـــود الخـــارجى صـــورة و « مضمونا » هو عند بوذا نكر أى نكر .. انه يقول : « حقا ياسيمها » ، اننى أنصح باخماد أشـــياء كثيرة ، ولـــكن ما أريد اخمـــاده هو الغرور والشهوة والفكرة الشريرة ، والجهل ، لأزرع مـــكانها التســـامح والحب والاحسان ومصادقة الحقيقية .

« ان تحرير كيانـــنـــا الجسمانى لن يتم الا عن طريق اكتساب الصحة والعافيـــة لوجـــودنا الاجتماعى ، وتحصيل الخير لأنفسنا ، الخير المطلق بسبيل من الحب . ولن نعرف الحب الا اذا كفرنا بالأنانيـــة ، وآمنا بأن وظيفة الحب هى قيادتنا لا الى الظلمات بل الى النور ، نور المعرفة الحقة التى لا يكون الانسان بغيرها انسانا » ..

وعندي أن تعاليم بوذا ليست مجرد خيال وجـــدانى جميل بل هى قوام الطبيعة الانسانية ذاتها ، ان تفاؤلى بمستقبل الانسان يجعلنى أشعر فى قـــرارة نفسى ، رغم كل المعوقات والمثبطات وألوان الشرور والأطمـــاع الراهنة ، أن الانسان فى ترق مستمر بالروح والعقل والضمير ، وأنه يتطور من المرحلة التى تســـودها شريعـــة القوانين والنصوص الى المرحلة التى تخيم فيها على العالم الواحـــد شريعة واحدة ، هى شريعة الحب . ان العالم ســـتجبره أدواؤه وعلله الى أن يؤمن ببوذا ويفىء الى ظل تعاليمه الخالدة

صلاح الدين الشريف

هل يحب الرجال الحرب؟

سيظل السلام حلم الأحلام على هـــذه الأرض ، بل ان فريقـــا من الاجتماعيين ورجال الفـكر العـــالمى يرى أن جرثومة الحرب سوف ينقلها الانسان معه الى الكواكب البعيدة التى سيصل اليها ويستعمرها فى آلاف السنين القادمة ، هـــذا اذا لم يـكن بعضها مسكونا بالفعل بخلائق لم يشفع لها تهذيبها ولا رقيها فى اجتثاث غريزة التقاتل والتناحر ، لأى سبب كان ، من نفوس الملأ الأعلى ..



وانه لأمر يستوقف النظر حقا أن تضيع جهود المشترعين والأخلاقيين ورجال الدين ، ودعاة الاخاء الانسانى فى كل عصر وقطر ، سدى خلال عشرات القرون ، وتذهب كلها أدراج الرياح ، رغم عديد المشروعات والخطب والمقالات والبحوث ، بل والتحذيرات والنذر الرهيبة التى ظلت تتـــوالى وتتجمع لتملأ آفاق العالم بسحبها الخانقة منذ أن اكتشف العلم أمر القنبلة الذرية وواصل تحسينها الى ان اهتدى الى سر القنابل الهيدروجينية والكوبلتية ، عدا ما هو مخبوء فى ضمير الغيب من ألوان الفتك وصنوف الدمار المروعة فى مئات السنين القادمة .. فوارحمة للانسان !

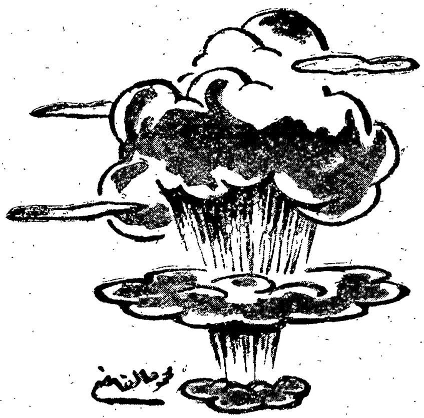
لم يفلح هذا كله اذن فى وقف عجلة الحرب ، أو فى تنحية شبحها البغيض ، أو حتى فى اطالة فترات السلام ، بل ظلت الحروب تتوالى بمعدل متوالية هندسية أو حسابية عجيبة ، حتى كاد معظم الناس فى جميع أنحاء العالم تتغلب عليهم نزعة التشاؤم ويوقنون أن الحرب سنة لازمة من سنن الكون والطبيعة ، وان كل حيلة للانسان ستتقاصر وتعجز حتما عن استئصال هذه السنة أو هذا الناموس الكونى القاهر .

اذن لا مفر من أن نبحث فى الأمر من وجهة نظر سيكولوجية بحتـــة ، فقد يكون فى كيان الرجل نفســـه ، بوصفه الكائن الخشن الذى يحارب

ويقاتل ، ويصنع أسلحة القتال والدمار ، ويتفنن ما شاء له خياله وعلمه فى ابتكار الجديد منها كل يوم ، ما يجذبه الى معمعسان الحرب جذبا لا قدرة له على مقاومته ؟!

والواقع ، لم تعد الأسباب التقليدية ، من تنافس على الأسواق الاقتصادية ومنافذ الخامات ، وصراع لاهب على مناطق النفوذ العسكرى والسياسى ، وما يجيش فى صدور الأمم أحيانا من فورات مفاجئة قوامها الكرامة القومية والنعرات الوطنية ــ لم يعد هذا كله ، أو غيره من الأسباب المماثلة ، كافيا لاثارة الحرب ، بل يكمن وراء ذلك سبب آخر أصيل ، سبب يعود الى طينة الانسان نفسه : أنه حب الرجل للحرب والقتال ! نعم ، ان حب الرجل للحرب ، ومحاولته اشباع غريزة التقاتل فى نفسه هو المسؤول الأول عن هذه الكوارث التى نغصت على الانسان معيشته ، وحكمت على كل تمدنه ، ورقيه الظاهرى ، بالافلاس والعقم ..

على أن الحرب ليست مجرد مذبحة أو ميدان أهوال وفظائع وكفى ، انما هى فرصة تتاح للرجل من حين الى آخر ، كى يحقق عن طريقها رغبة مستكنة فى نفسه ، متأصلة الجذور فى



وجدانه وحواسه ، لايمكن أن يتغلب عليها العقل أو الأخلاق .. انها فى الواقع رغبة عملاقة عاتية ، تهز كيانه كله ، وتحمله على أن يعود ، من وقت لآخر ، الى حالته الأولى من الهمجية والتوحش ، فيندفع « تلقائيا » الى أعمال القتل والسلب والقسوة ، كأنه أسير حمى موقوتة تطفىء فيه كل بصيص للتفكير والتبصر ؟!

والرجل «قاتل» بالطبع والفطرة ، ولولا ذلك ما سجلت صحائف التاريخ ، قديمها وحديثها ، كل هذه الأهوال والفظائع ، والمنكرات ، تعصف ، بكل وهجها ولهبها اللافح ، بأروع آثار العمران ، وتقضى فى وحشية رهيبة على النساء والأطفال والشيوخ ، والمرضى والزمنى ، فضلا عن زهرة الشباب الذى كان مرجوا لخدمة

أوطانه وخدمة الانسانية ، وتجعل من مبتدعات الحضارة فى العواصم الكبرى والمدن الآهلة ، تلك التى أنفقت فيها الأعمار الطوال والقناطير المقنطرة من الأموال التى يعيى الخيال حصرها ، أثرا بعد عين !

والذى يؤكد نزعة حب القتل الكامنة فى نفس الانسان ، مراجعة بسيطة لاحصاءات أية أمة متمدنة ؛ فلو أتيح لك الاطلاع على بعض الاحصاءات ، لرأيت عجبا عاجبا ، اذ يسجل لك منطق الأرقام هذه الحقيقة المؤلمة . ففى ألمانيا قبيل الحرب العالمية الثانية ، سجلت سلطات الاحصاء ما يقرب من خمسين ألف جريمة قتل . أما فى الولايات المتحدة فترتفع النسبة ، فى الفترة نفسها ، الى ما يقرب من سبعين ألفا ، هذا الى ازدياد حالات السيكوز والنيروز بين الرجال فى أوروبا وأمريكا .

ولقد ذهب بعض المتشائمين من علماء الاجتماع الذين استقرءوا هذه الاحصاءات ، وحاولوا تفسيرها تفسيرا علميا الى أن الرجل « حيوان قاتل » لجنسه ولغيره من أجناس الخليقة الدنيا ، وليس كما قال أرسطو قديما عنه : انه حيوان ناطق أو مفكر ؛ ذلك أن الرجل متى تجمعت حوله الظروف



المهيئة للقتل ما تردد لحظة واحدة عن مقارفة هذه الجريمة البشعة . فهو اذا حزبه أمر ، وأحس بشعوره الباطن أنه فى ورطة لا نجاة له منها ، وشعر ولو شعورا كاذبا أنه فى مأمن وحرز حريز من يد القانون الباطشة ، وأمن دواعى الفضيحة ، أحس نارا لافحة تجيش فى أعماقه كلها ، وتحمله حملا ، يفقد معه الرشاد والوعى ، على الاندفاع نحو افناء الغير (وهى غريزه تعادل غريزة افناء الذات كما قال فرويد) وما يقصد من وراء ذلك الا مجرد اطفاء شعار هذه النار الآكلة ، ثم يهدأ ويستريح !!

ويذهب علماء آخرون الى أن فى الحرب جاذبا آخر غير طبيعة الرجل

نفسها ، أى غير الطبيعة الحيوانية . انه الإحساس الوجداني العميق بالمشاركة في خدمة قضية عادلة ، أو مناصرة مبدأ رفيع ، أو تأييد منفعة قومية لا كيان لأمته بدونها ؛ على أن فيها أيضا دواعى أخرى للتنفيس والترويح عن النفس من ضغط حياة الحضارة على اعصابه ، واطرادها في التراكب والتعقيد . فلا جدال في أن مسؤوليات العيش في هذا العصر غدت أكثر استنزافا لكيان الانسان مما كان عليه الحال منذ قرنين أو ثلاثة قرون مضت . ومما يؤيد هذا النظر ان الحرب لا زالت — مع الأسف الشديد — الحل الوحيد لمشكلة البطالة والتعطل ، واضطراب ميزان الانتاج والاستهلاك في السوق الاقتصادية الحديثة ..

هذا الى أن فيها الثياب العسكرية الموشاة بالأوسمة والنياشين ، وهى من أقوى عوامل المباهاة اغراء للشباب ، ثم لا ننسى في هذا المقام اعجاب الجماهير المتراصة في الميادين والطرقات ، وهى تتزاحم بالمناكب والرؤوس لتشاهد صفوف الجند الخارج للحرب والقتال في استعراضات عسكرية وموسيقية مثيرة لجنون الحماس وشهوة الصراع ..

كل هذه المغريات تلوح رائعة شديدة الجذب للشخص العادى ورجل الشارع ، والموظف الصغير الدخل الذى يعيش مهموما بسبب ازدياد تكاليف الحياة ، والزوج الذى فقد السعادة الزوجية ، وأكرهته الظروف على أن يحيا تحت سقف واحد مع زوجة ، مشاكسة ، والعامل الذى استهلكته حياة البطالة والتسكع ، فهؤلاء جميعا يوقنون ، وهم مكتوون بنيران ظروفهم الآخذة في التعقد ، ان الحرب هى الملجأ الوحيد الذى سيخلصهم لا محالة من كل هذه الأوجاع والمنغصات .

فاذا أضفنا الى هذه الدوافع والمغريات دافع حب الوطن وخدمة الحق وأداء الواجب ، ولو كان الوطن هو الظالم لغيره من الأوطان ، والبادىء بالحرب والعدوان ، لرجحت كفة الحرب على كل اعتبار !

ومن علماء النفس من يذهب الى أن حياة السلم — بجانب حياة الحرب والقتال ذات الجو المثير الأخاذ — ليست الا ضربا من الجمود ، والركود على أسلوب الوتيرة الواحدة ، سرعان ما تسأمها نفوس الشباب المشبوبة الحماس بأوهام الخيلاء العسكرى .

ويجب أن نعرف أن السلام السياسى غير السلام الاجتماعى ، وان كان كلاهما ، لو تعمقنا مفهومهما ، وهم من الأوهام ، بل باطل الأباطيل !!

ففى فترات السلام السياسى لا تكف الدسائس والمؤامرات ، والسعايات الخفية عن الدبيب والحركة ، والتسلل الى هنا وهناك ، لترويع الشعوب الآمنة ، والعدوان على استقلالها بقوة القهر والغلب . وفى ظل السلام الاجتماعى ـ وهو وهم آخر كبير ـ تكثر حوادث القتل الجنائى والانتحار الى حد لافت للنظر .. أما عدد ضحايا البيوت المنهارة والانحلال الاجتماعى ، والمخدرات ، والشذوذ الجنسى المفضى الى قتل الضحية لبلوغ حد السبق ، والتشرد بشتى صوره الخ .. فهذا كله مما يؤكد لنا أن السلام ، بكلا لونيه السياسى والاجتماعى ، مجرد وهم جميل .. وهم لا يزال يخيم على أفكار العالم كله !

مما تقدم ، يتبين لنا أن الحرب كما هى مجال للمباهاة واشباع ثورة الغرائز المجنونة ، هى أيضا مجال للفرار من المسئوليات بكافة أنواعها ؛ وفى هذا يقول الكاتب الأيرلندى الساخر ، جورج برنارد شو ، « ان الجيوش تتألف فى الغالب من الجبناء »!!

ذلك أن آلافا مؤلفة من الرجال الذين يتوقون الى التحلل من ضغط القيود الاجتماعية التى تربطهم بأسرهم ومجتمعهم ، يجدون فى الحرب سببا ينتحلونه للفرار من تلك المسؤوليات، ومن ثم اطلاق نفوسهم الجامحة من قيودها تحت ستار الوطنية والانسانية ، وكلاهما براء من هذه اللوثة ..

على أن المتفائلين من علماء الاجتماع ، المؤمنين بالتطور الأخلاقى وبلوغ التنظيم الاجتماعى الى أوج كماله فى يوم من الأيام ، يأملون فى ارتقى الأدبى للانسانية خلال المئات القادمة من السنين . وهم واثقون من أن هذا التطور الخالق سيكون قادرا على استلال رواسب الحيوانية الأولى من نفسية الرجل ، والأخذ بيده كى يعيش معيشة تتواءم والجنس « الآدمى » الذى انحدر منه ، هذا الجنس الذى تطور من حضيض الحيوانية وسلحته الطبيعة بقوة الفكر ، وبالقدرة على ممارسة الرقى والتطور . وبهذا الفكر وبهذه القدرة سيتمكن من ان يتسامى بغرائزه ، ويرتفع بحياته حتى لا تماثل حياة نظرائه منذ ملايين السنين ، ممن لا يزالون يؤثرون سكنى الغاب كالأورانج يوتانج ، والشامبانزى !

من ذكريات باريس

محجوب ثابت يتزوج مارجريت ووقائع أخرى

مكث كاتب هذا المقال عدة سنوات في باريس وهو يروى هنا بعض ذكرياته ومغامراته في مدينة النور

أول ما يلفت نظر الغريب في باريس ويثير اعجابه هو المترو تحت الأرض الذى يسير داخل أنفاق محفورة فى جوف الأرض تخترق أحيانا قاع نهر السين فى أنابيب ضخمة من الفولاذ وأحيانا يمر تحت عمارات شاهقة . وهو أعظم عمل هندسى فى القرن العشرين .

والمترو يخترق العاصمة من أقصاها لأقصاها ويصل بين ضواحيها النائية .

وذات مساء انعقد شمل الاخوان فى مقهى (لودوم) على طريق (مونبارناس) واذا بالمرحوم «الدقتور» محجوب ثابت يهل علينا بمحياه اللطيف ولحيته المعروفة التى أصبحت أشهر من برج ايفل !

وطلب الدكتور من الجرسون حساء البصل وهو الصحن المفضل لدى عامة الفرنسيين .. لأنه « ياولدى » يعاوده الشوق والحنين الى أيام زمان لما كان يتلقى العلم فى السوربون ويسير على الأقدام من (سان ميشيل) الى المقهى المذكور كى يشرب فيه نفس الحساء .

وتعلقت خيوط جبن (الجروير) بذقن الدكتور كأنما تلثمها من فرط الشوق أو تراقصها الرومبا التى انتشرت مودتها وقتئذ . وكان يرنو الينا وهو يباعد بيديه خيوط الجبن العالقة بشعر ذقنه ، وكأنه يحثنا على الاستزادة من الضحك لموقفه الحائر .

فالدكتور شخصية مرحة يولع بالمزاح والمجون الأدبى . وهو فارس لا يباريه أحد فى هذا الميدان . وله فيه نوادر مأثورة .

وأقبلت مرجريت وهى حسناء باريسية رائعة الفتنة والجمال . ورامت مداعبته فأخذت تتظاهر بمعاونتها له على ازالة خيوط الجبن بينما تدغدغ بأصابعها ذقنه ووجهه ، فيضحك الدكتور ويذوب صبابة أمام سهام لحظ الباريسية الشقراء !

ومالت نفسى الى المساهمة فى اضحاك الحاضرين ، فسألت مرجريت اذا كان لديها ما يمنع من اقترانها من الدكتور النابغة المصرى فلم تمانع ووافقت بسرعة ادهشتنى وراحت تتغزل فى جماله ووسامته ؛ وأضافت بأنها تصبح أسعد بنات حواء لو اقترنت منه لأنه فتى أحلامها ! ولكنها اشترطت شرطا واحدا وهو أن يثبت الدكتور حبه لها فيحلق ذقنه فورا !..

وامتعض الدكتور لسماعه هذا الشرط ولكنه راح يعدد لها مناقب الذقون وحسناتها وكيف انها تغنى الانسان عن برودة الحلاقين وتدفىء الوجه شتاء فضلا عن أنها تكسب الرجال مهابة وجلالا ، وتصبح كأنها (أكسيدان) لوجه الانسان تدفع عنه كل أذى ..

وكانت الباريسية تنصت لحججه وتعارضها بعد ذلك . وطبعا رجحنا جميعا رأيها حبا فى عيونها الخضراء وشعرها الذهبى ورغبة منا فى مداعبة الدكتور .

ولما انصرفت التفت الينا الدكتور وقال آسفا وهو يبلع ريقه (لو تزوجتنى أبقى أحلق ذقنى ياولدى) !!

* * *

يخطىء من يظن أن الزوج الفرنسى لايشعر بالغيرة على زوجته . والحقيقة انه اذا وثق فى صداقة وأخلاق شخص ما ، سلم له بكل شىء وجعله مستودع أسراره وائتمنه حتى على زوجته . وهذه هى الطبيعة الفرنسية تميل الى الثقة بالغير وتنشر جوا من الاطمئنان والأمان بين المعارف والاخوان ..

أما اذا كان الفرنسى يجهلك أو يرتاب فى أمرك فلن يوليك ثقته ويكون دائما على حذر منك .

كان ذلك يوم ١٤ يولية ، وهو عيد الحرية فى فرنسا ، وقد امتدت أسلاك المصابيح الكهربائية على طول الطرقات الرئيسية فى باريس وتلألأت الكهرباء المثلثة الألوان على ارتفاع برج ايفل الشاهق ، فبات كل شخص يسعه رؤيتها من أى جزء فى باريس . وبدأ البرج المزين كأنه عروس جميل يضحك ويشرق وسط فرح شامل ورقص وموسيقى على قارعات الطرق وفى الميادين العامة .

وكنت مدعوا للعشاء عند أسرة فرنسية متوسطة الحال وقدمت لى صاحبة الدار صحنا من (ابو فروة) بالثوم والبصل والطماطم ! وذكرت لى انه صحنها المفضل وأرغمتنى على الأكل منه فتذوقته وأطريته لأرضيها .

وبعد الطعام خرجنا للرقص وأبى الزوج وهو صديق فرنسى حميم لى الا أن أراقص زوجته . وراقصتها وقبلتها على مرأى من زوجها الذى كان يضحك مسرورا مغتبطا .

وتذكرت الفرق بيننا وبينهم !

حدث مرة أننى كدت أشتبك فى عراك مع أحد ركاب الترام فى مصر لأننى « زغرت لمرأته » على حد قوله !!

* * *

وحدث لى مرة حادث عجيب كاد يوقعنى فى ارتباك شديد .

كان ذلك فى أحد أعياد الفصح عند الفرنسيين ، وقد امتلأت واجهات المحال التجارية خصوصا محال الحلوى بالبيض الملون والكعك .

وحوالى الحادية عشرة صباحا قرع باب غرفتى بشدة ففتحته فاحتضنتنى باريسية حسناء يضاهى جمالها جمال آن شريدان أو بتى جرابل .

وانهالت على لثما قبل أن أعرف من هى وماذا تريد ؟ ودهشت لجرأتها وسألتها عن سر هذا الحب المفاجىء ؟!

قالت : الست فلان خطيب الآنسة (مارسيل مازمونتى) ؟

ـ الاستعلامات صحيحة ولكن . .

ـ ان زوجى خرج للقاء خطيبتك فى موعد غرامى .

ـ أرجوك لا تثيرينى أكثر من هذا . .

وما دليلك على صدق اتهامك ؟

اجابت : ـ كلمتنى صديقة مخلصة لا اشك فى صدقها وذكرت لى بأنها شاهدت مارسيل فى سيارة مع زوجى ، واخبرتنى بأنها خطيبتك وذكرت لى عنوانك فأسرعت بالمجىء اليك .

وما اتمت حديثها حتى قرع الباب مرة اخرى بشدة أكثر وصاح صوت هائج خشن يقول ـ افتح والا دفعت الباب وقتلتكما حالا . (وصاحت ـ زوجى !!)

كاد يغمى على السيدة المجهولة بجوارى . وهنا لاحت لى فكرة كان فيها انقاذ حياتى فأسرعت ، ودفعت بالسيدة داخل دولاب كبير فى جانب الغرفة واغلقت عليها بالمفتاح واخفيته تحت البساط ثم فتحت الباب وتمالكت كل هدوئى وثباتى .

فظهر لى رجل ضخم الجثة كالفيل الصغير محمر الوجه غاضب ثائر ودار بعينيه فيهما الشرر فى أركان الغرفة . وقال :

ـ الست المسيو فلان المصرى ؟

فأجبته بالايجاب وأضفت أن ليس لى شرف معرفته بعد . قال متسائلا :

ـ الا تعرف أين هى زوجتى ؟

ـ فى منزلكم بالطبع .

ـ ولكنى أؤكد أنها فى منزلك أنت .

ـ أرجوك ياسيدى . أنا لاأعرفك . وقد أقلقتنى من نومى بهذا الطرق المزعج وكنت سهران طيلة ليلة أمس . .

خبرنى ماذا تروم من دعابتك السخيفة هذه . . أنت تدعى أن زوجتك هنا وأنا لا أعرفك ولا أعرفها، فهل ترى غيرنا فى الغرفة ؟

وبانت الحيرة على صاحبنا .

وعندئذ طرق الباب مرة ثالثة ودخلت (جيزيل) وهى سيدة فى مقتبل العمر صديقة حميمة لخطيبتى ولنا . فلما رآها الزوج السمين المخدوع أقبل عليها مسلما مرحبا فأدركت أنها تعرفه كذلك . فقالت جيزيل وهى تضحك موجهة الكلام الى الرجل :

ـ مالى أراك يامسيو روجيه ثائرا كأن قد حدث عراك بينكما فى التو واللحظة !

أجاب روجيه :

ـ أصارحك ياسيدتى جيزيل أن قد حلت بى نكبة عظيمة . فهذا المعتوه يخدعنى مع زوجتى .

قلت متكلفا الدفاع والغضب :

ـ أرجوك ياسيدى أنت لا تعرف مع من تتكلم .

فبادرت جيزيل : ـ عفوا يامسيو روجيه فان زوجتك لا تخدعك ما لم تخدعها أنت ثم انها صديقتى وأنا أعرف مسيو حسن فهو رجل عفيف . (تقصدنى) .

قال روجيه : ـ أنا لم أخن زوجتى فى حياتى .

قالت : ومن هى السيدة التى ذهبت للقائها فى مقهى لاكوبول فى موعد غرامى صباح اليوم ؟

فاضطرب روجيه واحمرت وجنتاه وتلعثم ثم قال : ـ ومن أدراك بهذا ؟

وهنا قرع الدولاب فترددت ولكن حين أشارت لى جيزيل من طرف خفى أن أفعل تشجعت وفتحته فكادت السيدة مارى لويز تسقط مغشيا عليها .

وعندئذ علا ضحك جيزيل وقالت :

ـ أنا السبب فى كل هذا سوء التفاهم .

فطلبنا منها أن تشرح سر الموضوع . فأجابت فى بساطة : ـ ليست هناك أية خيانة . فقد تحدثت بالتليفون مع زوجك روجيه وانتحلت شخصية مارسيل مازمونتى صديقتى ، وضربت له موعدا فى مقهى لاكوبول صباح اليوم للغداء وقضاء اليوم فى غابة بولونيا . وأقبل زوجك فى الموعد المحدد وظل ينتظر على أحر من الجمر

وانا ارقبه من مكان خفى . ثم حدثتك بالتليفون وذكرت لك أن زوجك لمحته مع سيدة هى مارسيل فى سيارة . ولما طلبت نصيحتى ذكرت لك أن تقابلى الخيانة بالمثل وان تذهبى لمقابلة مسيو حسن فى فندقه وهو خطيب مارسيل . ثم ذهبت لمخاطبة روجيه من مقهى لودوم المجاور وذكرت له أن زوجته هى الآن فى منزل المصرى .

قلت متسائلا : ولماذا صنعت كل هذا ياجيزيل ؟

قالت : اليوم عيد وأردت أن أكذب كذبة تدخل السرور على أصدقائى!..

ويا له من سرور كلفنى كثيرا من الرعب والاحراج وكاد يوقعنى فى ارتباك ويعرض حياتى للخطر !

ولكنهن الباريسيات !!

* * *

كنا أربعة من الطلبة المصريين برح بنا جميعا الجوع ظهرا فى الشتاء فذهبنا الى أحد المطاعم القريبة وكنا لم نرتده من قبل . وبعد الطعام — وكان بسيطا — شعرنا بأن الجوع لم يخمد بعد فأحضر لنا الجرسون صحنا كبيرا عليه أنواع عدة من الجبن . وعادة الفرنسيين أكل الجبن بعد انتهاء الطعام وقبل تناول الفاكهة . ومن الذوق الحسن ان يتناول الانسان منها بمقدار . ولكننا أتينا على كل مافى الصحن من الجبن . فلما حضر الجرسون نظر الى الصحن فلم يرفيه أثرا للجبن فكظم غيظه ونظر الينا وهو يرفع الصحن وقال (اذا كنتم ياسادة لاتحبون هذا الصنف أحضرت لكم لونا آخر من الطعام !) فضحكنا جميعا .

فائدة الجنون !

يسعى بعض الناس الى الجنون بأنفسهم عسى أن يجدوا فى أرض الأحلام ذلك الاحساس بالأهمية الذى افتقدوه فى أرض الحقائق !

فولتير

- لا يملك الانسان رغباته ، ولكنه يملك ارادته .

- انك تسعد عندما تغار عليك المراة ، ولكن حذار ، فان الغيرة سجن توضع داخل جدرانه جميع عواطف الرجل !

- ان الفتاة التى أحبها سخيفة .. انها تحاول أن تحرمنى من الفتيات اللاتى أحببتهن من قبل ، وأريد أن أحبهن فيما بعد.

(چان چاك روسو)



موت بوذا

للرسام الهندى سارادا أوكل

يطلب من مكتبة نهضة مصر